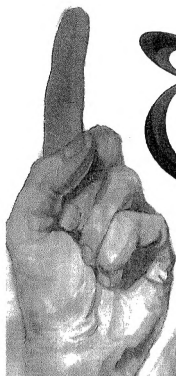


ثروت اباظه

خشخ



خُشوع

مطبعة خان بكينة ملهز

خُشوع

ثروت اباظه

المنار
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

اهكاء

لا إله إلا الله محمد رسول الله

كلمة حق

إلى زوجتي أم أمينة ودسوقي .
هذه روايتي العشرون أقدمها فكأني أقدمها إلى نفسي .
فقد كنت لى على مدى أربعين عاما أمنا عند الجزع .
وحصناً عند الضائقة . وسكينة عند الروع . وحباً لا يخالطه
من . ووحياً كأنه نور من السماء . وحبداً إذا تجهمت
الدنيا . وإشفاقاً حين تنبت الأشواك فى الطريق ، وكم مرت
بنا من الأيام أشواك فكنت أنت الورود فيها . وكم لقينا من
الحياة ظمأً فكنت أنت الورد الصافى والماء الطهور .
إليك بجانبى كل دعائى إلى الله أن يمد فى عمرك ،
لتكونى لى ولابتك ولابنك الحياة التى لا حياة لنا إلا بها ،
فثلاثتنا يشعر عن يقين أنه هو أنت ، وحسبنا أن نكون نحن
أنت .

شروى

١

المركز في مصر شأنه عجيب .. فلا هو مدينة تكتمل له عناصر
المدينة جميعا .. ولا هو قرية ترين على جنباته أجواء القرى التي يعرفها
ريف مصر منذ فجر التاريخ ..

المركز مدينة صغيرة أو قرية مكبرة يجمع بين الحاضرة والريف ،
في تناسق عجيب ..

فأنت تجد في المركز دارا للسينما ، أو ربما دارين أو ثلاثا أحيانا ..
وفي المركز أطباء كثيرون قد يزدون أو يقلون عن العشرة ،
ولكنهم دائما متعددون .. وقد تجد بل إنك كثيرا ما تجد أطباء
متخصصين .. وبالمركز دكاكين كثيرة لبيع الفاكهة ، الأمر الذي
لا تجده في القرية مطلقا ، ودكاكين أخرى لبيع الملابس .. بل إنك
في إجمالة تنأى بنا عن التفصيل تستطيع أن تشتري ما شئت في
المركز ، لا أستثنى من ذلك التلفزيون ، بل والفيديو أحيانا إن لم
تجده في الحال وجدت من يشتريه لك في ساعات من الفرع الرئيسى
الذى يمثل هو في المركز ..

وللمركز محكمة لها قضاؤها ونيابتها وجميع الموظفين الذين تحتاج إليهم المحكمة . أما الشرطة فأنت راجد لا شك قسما لها يرأسه مأمور بأكمله ، مع مساعديه من الضباط وما يليهم في المرتبة .. وبالمركز أكثر من ناد ، منها الرياضى ومنها الاجتماعى .. وربما يكون هناك ناد معين هو أهمها ولكنه لا يلغى الآخرين .. وبالمركز أكثر من محام .

مدينة مصغرة هو المركز .. وناسه يعرفون بعضهم البعض ، وهو فى هذا يقترب إلى القرية .. وينأى بعض الشئ عن المدينة .. فى مركز من مراكز مصر يقيم الرجل الطيب عبد الهادى النقيب .. ومركز المهديّة الذى يقيم فيه من أهم مراكز مديرية الشرقية .. وقد جاء عبد الهادى نفسه فى المهديّة وهو يعلم أن أباه وجدّه كانا يعيشان بها ..

وكان عبد الهادى النقيب من أعيان المهديّة ومن أحب أعيانها إلى ناسها .. وما اختلف قوم فيما بينهم أو وقع خلاف بين أسرّتين إلا كان عبد الهادى هو أول من يتجه إليه المختلفون ، يرجون عنده الرأى السديد والعقل الراجح والبعد عن الهوى والحفاظ على العدل ..

فما كان عجيبا أن أصبح عبد الهادى فى نفوس أهل المهديّة رئيسا

للقوم .. وقد تولى منصبه هذا دون تعيين وبغير انتخابات .. هو هكذا في القلوب دون أى قرار رسمى .. ويعلم الله أن كثيرا من أصحاب الرئاسة الرسمية يتمنى أن يصل إلى هذه الرئاسة المضمرة المتمكنة من القلوب ، ويهون عنده حينئذ كل المراسيم والقرارات والأوامر التي نصبته رئيسا رسميا ذا تاج وكرسى عرش وحرس وخدام وضجيج وعجيج وصراخ ، لا يدري أحد مدى الحق في شأنها .

أما رئاسة القلوب المضمرة فهي رئاسة لا شك في أمرها ، أثبتها كل فرد من أفراد الشعب في نفسه .. وأصبح في غير حاجة أن يعلن عنها .. كذلك كان عبد الهادى وهكذا نفى الله عنه أبهة الرئاسة المظهرية .. فلا هو صاحب غرور ولا تكبر .. وما لرئاسته مراسم مظهرية ولا طبل ولا زمر .. وربما كان لا يدري أن الناس يتخذونه في نفوسهم رئيسا لهم ، ولكنه — لا شك — كان يعرف أن الناس يحبونه لأنه كان على ثقة أنه يحب الناس ، ويسعد أن يقبل عثرة من أنزل الدهر به عثرة .. وهنا أن يد من احتاج بحاجته ، وتملأ نفسه البهجة إن وقف بجانب أسرة كانت ذات عزة وكرامة وأراد الدهر أن يعدو عليها ..

كانت دار عبد الهادى موثلا لمن حاولت الحياة أن تزعرع مستقرهم ، يجدون فيها النفس الراضية تسمع وتواسى .. ويجدون إلى جانب الكلمة العادلة كرم المال والنفس يقدمه عبد الهادى مما حباه الله

به من مال .. وقد كان غنى عبد الهادى غنى واسعا ، ولكن الناس أحببت له هذا الغنى لأنه كان يعتبر ماله مال كل محتاج وكل أخ في الإنسانية حزبه من الحياة ضائقة ..

وكان عبد الهادى أيضا لا يبخل بجهده عند الشدة .. فإن له في أعيان مصر صلات وصدقات ، وما تأخر يوما عن سعى حثيث في سبيل خير أو بعض خير قد يعود على قاصده ..

وكان أخو عبد الهادى أصغر منه بسنوات عديدة ، وكان منه بمثابة الابن تماما . فإن عبد الهادى فقد أمه وهو يقارب العشرين من عمره ، وكان أبوه الحاج رافع النقيب في الخمسين من عمره فتزوج بعد وفاة أم عبد الهادى بعامين ، واختار لنفسه عروسا من أسرة النوافة توفى عنها زوجها وهى في الثانية والثلاثين من عمرها . ولم يمتد زواجها الأول بما يسمح لها أن تهب الحياة أبناء .. فحين تزوج منها الحاج رافع وهبت له عبد الوارث بعد سنتين من زواجهما ..

وهكذا كان عبد الهادى بمثابة الوالد لعبد الوارث ، وقد كان الحاج رافع يمزح دائما وهو يقول : عبد الهادى أخذ منى عبد الوارث فأنا لا أعرف من شأنه شيئا ، هو الذى يرعاه .. لعل هذا يقنعه أن له ابنا ما دام قد مضى على زواجه سنتان ولم ينجب ..

وقد كان عدم إنجاب عبد الهادى هو الغصة التى يشقى بها عبد الهادى .. فقد كان كل أمله أن ينجب ، وكان يقول لأصدقائه .. الأبناء للآباء حياة أخرى وإن كانوا يأكلون الحياة الأولى . أرى جزع الآباء على بنينهم فأكاد أحمد الله أن ليس لى بنون ، ولكننى ما ألبت أن أتمنى أن أصاب بهذا الجزع ، وأن أظل على ولدى ملهوفاً لهفة كفيفة أن تمحو كل سعادة فى حياتى ، ولكنها فى ذاتها سعادة لا تعدلها سعادات العالم أجمع ..
كان يقول لأصدقائه ..

إننى أتمنى أن أرى بنفسى ولدى ، ولن أحاول أن أتظاهر بالرضى أننى لم أنجب .. لا ، أنا أريد أن أنجب مهما يكن فى الإنجاب من رعب يتولى الأب نحو بنيه ، ومهما يكن فى الإنجاب من إنفاق للصحة والمال .. ومهما يكن الابن مجلبة للقلق يتولى الأب بين أمل يهفو إليه وحقيقة تطالعه . وذعر يتولاه أن يصاب ابنه بمكروه مهما يكن هينا هذا المكروه .. أريد أن أنجب مع علمى بالهلع الذى يتولى الآباء على أبنائهم .. إن هذا الهلع عندى سعادة .. ويل للأب إن أصيب الابن بمرح .. وما أعظم الهول الذى يلقاه الأب إذا قدر الله عليه أن يوارى ابنه التراب .. ولكننى ومع علمى بكل هذه الأهوال أريد ابناً .

حين مات الحاج رافع كان عبد الوارث فى الثامنة من عمره ..
فكان عبد الهادى منذ هذه السن الباكرة بمثابة الأب له ..
ولكن ليس فى العالم لإنسان يستطيع أن يكون مكان الأب
مطلقا .. كان عبد الهادى يخشى أن يقسو على أخيه لأنه ليس ابنه ..
والأبوة تحتاج رغم أنفها إلى بعض القسوة فى كثير من الأحيان ..
وهكذا لم يكن غريبا أن يتعثر عبد الوارث فى الدراسة ، ولا يستطيع
عبد الهادى إزاءه إلا أن يعنفه تعنيفا هينا لم يصل إلى الشدة قط ..
ولم يتسلم عبد الوارث ميراثه عن أبيه ولم يكن قليلا ، ولكن
عبد الهادى قام على هذا الميراث خير قيام وراح ينميه لحساب أخيه ،
ورفض أن يحتسب من ميراث أخيه مأكله وملبسه مرتبيا أن هذا
واجب عليه حتى وإن كان الأخ غنيا ..
وكان الحاج رافع حين تزوج فائقة أم عبد الوارث رأى أن يرضى
ابنه الأكبر بعمارتين باعهما له وسجلهما باسمه .. ولم يكن عبد
الهادى محتاجا لهاتين العمارتين حتى يرضى ، فلم يكن غاضبا حتى
يحتاج إلى إرضاء ..

* * *

نذر عبد الهادى أن يقيم مسجدا لوجه الله إذا استجاب الله دعاءه
ومن عليه بمولود .. وإن للسماء أسرارها .. وحملت زوجته

حميدة .. وقبل أن تلد كان عبد الهادى قد بدأ يضع الأساس للمسجد وهو يقول إنه مسجد لله ، وسواء عندى إن تمت الولادة أم لم تتم .. قد نذرت أن أبنيه إن أنجيت وقد أخطأت ، فإن على ما دميت قادرا أن أبنيه أنجيت أو لم أنجب ..

وحين قدم إبراهيم عبد الهادى النقيب كان المسجد قد تم بناؤه ، وأقيمت الأفراح خيرات على الفقراء والمعوزين . وقرت عينا عبد الهادى واطمأن قلب حميدة .. واكتملت في البيت سعادة كانت ناقصة وأذن لها الله أن تكتمل .

* * *

شب إبراهيم فتيا بهى الطلعة مكتمل الرجولة زكى الفؤاد ، في سمته عند الناس قبول . لا يراه الرأى إلا انشرح قلبه لمرآه ، على فمه ابتسامة كأنها بطاقة من الحب تركها محب هناك عن عمد .. وفي جبهته إشعاع سلام كأنها دعوة ود لا كدر فيها ولا مغاضبة ..

وأجمع الناس على حبه مع أن الناس لا تجمع على شيء .. ناس المهديّة مثلهم مثل سائر الناس فيهم الطيب الشريف وبينهم المجرم الخبيث .. والخير في حياتنا نادر والشر على الناس غالب ، ولكن ليس هناك إنسان كل ما فيه شر . وحتى أهل الطيبة والورع قد تجد جانبا منهم لا يرضيك ، فإنه لا كمال إلا لنبي ..

كان أهل الخير وأهل الشر جميعهم يحبون إبراهيم .. لأنه كان لا يتيح فرصة لأحد أن يتصل به إلا بالحب ..
 شخصية توشك أن تكون بعيدة عن أبناء الحياة كان إبراهيم ..
 وكان طبيعياً أن يكون عند أبيه أعلى من الحياة .. وكم كان عجباً
 أم لعله لم يكن عجباً أن كتب عبد الهادي لابنه ماله جميعاً وإبراهيم
 بعد في المدرسة الابتدائية ، ولم يعبأ بقول الناصحين أن يترث ربما
 رزق بعد ذلك بابل آخر أو بابل .. لم يتصور أنه وقد ظل كل هذه
 السنوات بغير إنجاب أن ينجب بعد إبراهيم أخاً أو أختاً ..
 وكم كان عجباً .. أم لعله لم يكن عجباً أن قال عبد الهادي
 لابنه :

- أريد منك شيئاً ولا تعارضني ..
- أنا لم أعارضك في حياتي ..
- أعرف ذلك ..
- أنا لن أخرج عن أمر لك أبداً ..
- مهما يكن غريباً ؟

— لقد أسميتني إبراهيم تيمناً بأبي الأنبياء ، فاعتبرني بالنسبة إليك
 إسماعيل الذي امتحن الله فيه أباه ، وحين قال لابنه إنى أرى كأنى
 أذبحك ... قال يا أبتى افعل ما تؤمر .. وأنا أقول لك أنا فاعل

ما تأمر ..

— تزوج .

— أتزوج أمرك نفاذ ، ولكن ماذا يقول الناس عن تلميذ في

المدرسة الثانوية يتزوج ؟..

— يقول رأى أبوه نقاءه وطهره وأراد أن يعصمه ..

— هل اخترت لى العروس ؟..

— إذا لم تخترها أنت سأختارها أنا لك ..

— أحتاج إلى مهلة ..

— هل تطول ؟..

— لا ، ما أظنها ستطول يا أبنى ..

— أرايت أنى على حق .. إذن فإن قلبك كانت له نبضة بذاتها نحو

فتاة بعينها ..

— كنت أكنم النبضة لا تضيع .. وهل كنت أتصور أنك ستأمرنى

بهذا الأمر ؟..

— وها أنذا أمرت فقيم المهلة ؟..

— لا بد للنبضة من نبضة تقابلها . أريد أن أسمعها فإذا سمعتها من

بعيد أجبتك .

— وكيف لك أن تسمعها وأنت عنها بعيد ؟..

(خشوع)

— ١٨ —

- للشباب نظرة يسمع بها ، ولنا عند اللقاءات غير المدبرة ملاح
عرفها .. تنبئ ولا تفصح وتقول ولا تنطق .
— كنت شابا أنا أيضا ..
— ربما تكون قد نسيت .
— هذه الخلجات لا تنسى .. وتريد مهلة ؟
— ولن تطول .
— وأنا أنتظرها في لهفة .
— أرجو الله يا أبى أن يجعلنى لك دائما مصدر سعادة ، لا يشوبها
شائبة .
— إذن عجل .
— قبل أن تشعر بالضيق سيكون جوائى عندك ..
— موفق يا ولدى إن شاء الله .
— ببركة دعائك يا خير أب .

* * *

شاب هو ، له خفقات الشباب وأحلامه وآماله ورؤاه ... وله
أيضا الصديق الذى يشعر نحوه بوشائج ألفة وتربطه به أخلاق
متجانسة متقاربة .. يسعد إذا جلس إليه .. ولهما بينهما همس وآراء
وأفكار حتى كأنهما يصدران فى آرائهما عن مصدر واحد توحد
معينه ، وتمازجت الأمواء فيه صادرة وواردة .

وقد كانت هذه هى الصداقة التى تجمع إبراهيم بعبد الواحد الزيادى بن الشيخ مأمون الزيادى رجل الدين الذى اختاره أبوه ليكون إمام الجامع الذى بناه . وعبد الواحد زميل إبراهيم فى المدرسة منذ اليوم الأول لبدء دراستهما .. وتعود الأصدقاء أن يروا الصديقين متلازمين .

ولعبد الواحد أخت تصغر أخاها بعام واحد هى روية .. يحس إبراهيم نحوها وجييا كان يعذبه عذابا يعرفه الشباب الذى يحب ، والذى يعلم أن حبه لن يصل به إلى الأمل المنشود . إلا أن عذاب إبراهيم كان يزيد عن ذلك ، فقد كان يضاعف ألمه شعوره أنه يخون صديق عمره ونجى نفسه بهذا الحب ، وكان يلوم نفسه أشد اللوم : كيف تحبين أخت صديقك وأنت تعلمين أنه ليس إلى زواج من سبيل ؟ وكيف تحتملين أيتها النفس الخاطئة أن يكون هناك لك سر لا تجرئين على الإفشاء به إلى عبد الواحد ؟ . لولا علمك أنه سر لا يقال ما حبسته عنه ، ولأبحثه له مثل كل ما فيك من أسرار وأفكار وآراء .

ويل للناس من أنفسهم ! كان كل من يرى إبراهيم يحسب أنه المثل الأعلى للسعادة ، والناس لا ترى إلا ظاهر الأمور ، أو هى فى الحق لا تحب أن ترى إلا ظاهر الأمور . وليس لها شأن بخفايا النفوس

وحنايا الحياة وما يستره كيان الإنسان المغلق كأنه جدران سمكة ترد
العيون أن تتلصص إلى الداخل .. وكان إبراهيم يزلزل بين السعادة
والشقاء وهو يرى في عيون روحية تحية لعيونه التي تشع بما يكنه قلبه
لها ، وما يدرى أخير ذاك أم شر .

مسكين إبراهيم فقد كانت صداقته بعبد الواحد تكاد تدمره ،
حتى لقد كان خليقا أن ينزع حب روحية من فؤاده لو أن للإنسان
على فؤاده سيطرة أو سلطان ..
ولكن هيهات ..

هذا قدرى وهذا عذابى أن شاء الله أن يكون من حبى وهو
طهور ، وكان حريا أن يكون سعادتى ومن صداقتى وهى أمينة
صادقة ..

حين طالعه أبوه برغبته فى التعجيل بزواجه ، كان عقله وقلبه
وكيانه لا يعزفون إلا كلمة واحدة ..

ولو أن عزف القلوب والعقول والجوانح له صوت حتى وإن كان
هامسا ، لسمع عبد الهادى اسم روحية تردده كل خلنجة وخلية فى
أحناء ابنه إبراهيم .

لهذا لم يكن عجبيا أن ينصرف إبراهيم عن أبيه وسعادة الدنيا جميعا
تمور فى جوانبه ..

وانتحي من بيته ركنا وأغلق بابا وفكر ..
 كيف أعرف منها هي أنها تقبل الزواج منى لشخصى وليس
 لصداقة بين أبيها وأنى ، ومحبة صادقة قوية بينى وبين أخيها ؟
 أسأل .. كيف ؟ .. وهل هذا يجوز .. أجرح حيائها وأعدو
 مكانى الذى لا ينبغى لى أن أعدوه ..
 وانقضى الليل وأعقبه صباح ، ومع خيوط الفجر القادمة من
 السماء وجد إبراهيم هداه فى حيرته السعيدة .
 مع أذان الفجر ذهب إلى بيت الشيخ مأمون فوجد عبد الواحد
 بهم بالخروج ، ليلحق بأبيه فى المسجد ويصلى معه الفجر حاضرا .
 — عجيبة ! أنت لا تصلى الفجر فى الجامع ..
 — ولكن هل هناك ما يمنع ؟
 — أعوذ بالله ، بل هو الأفضل ..
 — لم أنم ، قلت أجيء إليك ونصلى معا بإمامة أبيك ..
 — علم الله يا أبا خليل أن وراء حديثك أمرا .
 — لم أستطع أن أخفى عليك من نفسى خافية ، فأى عجيبة أن
 تعرف هذه أيضا .
 — هلم بنا ..
 وصليا الفجر ، وبعد قراءة التحيات ظل إبراهيم فى مكانه وفى

— ٢٢ —

هيئته أنه يريد أن يقول ما بنفسه وهو في مكانه هذا .. وفهم عبد الواحد .. وبقي إلى جانب صديقه .. وانفض المصلون وخلا بهما بيت الله .

— هنا في بيت الله أريد أن أكلمك فيما جئت إليك من أجله ..

— توكل على الله ..

— أبى يريدنى أن أتزوج ..

— ماذا ؟ ..

— لا تناقش .. ابنه الوحيد ويخاف عليه الفتنة ، أو هذا ما قاله لى ، وربما كانت الحقيقة أنه يريد أن يرى لى ولدا ..

— لن أناقش .

— أريد الزواج من روحية .

وفى دهشة بالغة انتفض عبد الواحد :

— ماذا ؟ ..

— ما سمعت .. إن لها فى قلبى مكانا أخفيته عنك ظنا منى أنها

ستسبقنى إلى الزواج ، وأريد منك شيئا لم يطلبه أحد من أخى فتاة مطلقا ..

— ماذا تريد منى ؟ ..

— أنا أعلم مكانى ومكان أبى فى بيتكم ، ولكنى لا أريد روحية

زوجة مرغمة على الزواج بحكم صلات أهلها بصلات أهلي .

— وأنا ماذا أفعل ؟ ..

— لم أتصور أن انتهر فرصة فأسألها أنا ، فإننى بهذا أكون قد خنت صداقتى بك ، وهدانى الله أن يكون السؤال منك سؤالا صريحا من أخ إلى أخته .

وأستحلفك بالله وبصداقتنا إن وجدت لحظة من تردد ألا تعيد عليها السؤال ..

واحتضن عبد الواحد إبراهيم ودمعتان تطفران إلى عينيه ، ما يدري أدمع فرح بصديقه أم إعجاب به ..

— نعم الرجل ونعم الصهر أنت ونعم الأخ ! .. أسألها إن شاء الله وسأجتهد أن أكون فى سؤالى وفى نقلى لحديثها إليك قريبا من أمانتك .. أمانتك مع نفسك ومع الصداقة ... قم بنا ..

وقال إبراهيم وهو يربت ظهر عبد الواحد :

— هيا ، وفقك الله وجعل الخير على يدك ..

لم يكن شعور روحية أقل من شعور إبراهيم ، فقد كان قلبها يجيش إليه بألوان من الحب شتى .. وكان حبا منطلقا لا يقيده ما يقيد حب إبراهيم من محاذير .. كانت تحب وكفى ، وتلقى إلى المقادير مصائر هذا الحب .. ولم تكن فى حاجة إلى أن تستوثق من حب إبراهيم لها

فإن للفتيات إلى أعماق القلوب نظرة لا تخطئ ، وللفتيات قدرة على إخفاء مشاعرهن . فإبراهيم معذور إن استبهم به الطريق ولم يصل إلى حقيقة حبه في قلب روحية ، أما الشباب فهو في إخفاء الحب ساذج .. وإن له دائما من نظراته ولفقاته وقسمات وجهه ما يفضحه ، فما بعجيب أن تدرك روحية مدى حبا في قلب إبراهيم .. وما بعجيب أن يجهل هو إن كانت تحبه أو لا تشعر به .. قال لها عبد الواحد :

— ما رأيك في إبراهيم يا روحية ؟

وانبهرت روحية وأطبقت عليها الحيرة .. أيكون عبد الواحد قد اطلع على خفايا قوادها ، أو يكون إبراهيم قد باح بحبه البكر إلى صداقته الخالصة عند عبد الواحد ؟ .. وجمعت حروفا كونت جملة مترددة متهدلة غير واضحة المعالم :

— ما معنى هذا السؤال ؟

وفي حسم الأخ وفي أمانة الصادق الذي لا يعرف كيف يدور بالحديث :

— يريد أن يتزوج بك .. نعم تلميذ ويتزوج .. يريد أبوه أن يفرح به .

وانفرجت فرحة على معالم روحية جميعا وهي تقول في سعادة

ذات نغم :

— وأنا ما شأنى ، لماذا لم يكلم أبى ؟

— عرفت الجواب إذن ، فقد كان حبيبى إبراهيم متحرجا أنك قد

تقبلينه من أجل صداقته بى ، أو من أجل صداقة أبيه بأبيك ..

— وماذا رأيت ؟

— رأيت ما يرضى ضميرى ..

وتخاذلت روحية فقد أدركت أنها فشلت فى إخفاء مشاعرها ..

— إياك يا عبد الواحد أن تنقل ما رأيت منى إلى .. إلى .. إلى

إبراهيم أو إلى أبى ..

— سرك معك لم يبرحك ، وتعالى أقبلك لأكون أول من

هنأتك ..

وقبل الأخ أخته ..

— وأقيمت الأفراح وتزوج إبراهيم من روحية . وما هو إلا شهر

حتى حملت روحية حملها الأول .. ولكن الأقدار شاءت فى إرادة

لا يعلمها إلا صاحب النفوس وبارئها ومعطيها وآخذها ، أن يموت

إبراهيم وزوجته فى شهور الحمل لم تنزل .. وكأن إبراهيم قد ولد

ليهب الدنيا هذا الولد الساعى إلى الحياة من السماوات العلا .

وكان الله قد شاء أن يؤدى إبراهيم ما خلق له ، ثم يطويه إليه

سراجا وهب الحياة ما تحمله روحية ثم انطفأ ..

وانطفأت الحياة جميعها في عين عبد الهادى ، وتعلقت نفسه بالجنين قبل أن يراه أملا ليأس قائم ، ونورا لظلمات من طبقات بعضها فوق بعض ، حتى كان إبراهيم إن أخرج يده لم يكذب يراها إلا بهذا البصيص من الشعاع الذى يومض إليه ممن تحمله روحية .. وأصبح انتظار المولود هو عمل عبد الهادى الذى لا عمل له غيره . كانت يد الطفل تمتد من السماء ويتعلق بها عبد الهادى تمسك الغريق ليس له غيرها أملا ..

وحل موسم الحج ووجد عبد الهادى أنه إذا حج يستطيع أن يعود قبل أن تلد روحية .. فخرج إلى الحجاز هناك يدعو : لبيك اللهم لبيك فيما أخذت ولبيك فيما أعطيت عبادك ، نحن نرضى بما قسمت ونردد آياتك التى منها كلماتك المشرقة الوضاءة ..

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

صدق الله العظيم

٢

عاد عبد الهادى من الحج ، وفور عودته طلب من القابلة الحاجة مبروكة أن تقيم فى البيت إقامة كاملة حتى تشرف على راحة روحية ، لا لتقوم بتوليدها .. فقد كان ينوى أن يجعل الطبيب جابر. فواز أحسن أطباء النساء فى المركز يتولى ولادة — روحية ..
وتمر الأيام ويفاجأ عبد الهادى بالشيخ مأمون الزياى قادمًا إليه ..

— يا حاج عبد الهادى فقد سكتَ طوال هذه الفترة احترامًا
لحزنك .

— سكت عن ماذا ؟

— عن بقاء روحية فى بيتك ..

— أليست ابنتى ؟

— ولكن زوجها ...

وألجم الأسى لسان الرجل الطيب . وقال عبد الهادى :

— ماذا .. لماذا لا تقولها ؟ ..

— ٢٨ —

— لقد كان منى بمكان الابن أيضا .

— هل أنت واثق ؟

— الله أعلم .

— إذن فأنت صادق في قولك .

— لا شك في ذلك .

— أما إن شأنك لعجيب ..

— وأى عجب أن تلد ابنتى فى بيتى ..

— يا أخى لقد اعتبرت أنت ابنى ابنك ، فلماذا تأبى أن تكون

ابنتك بنتى وهى تحمل ابن ابنى فعلا ..

— العرف والتقاليد ..

— ومتى كان لى بيت ولك بيت يا شيخ مأمون ؟

— أخشى أن يقول الناس إننى بخلت أن أنفق على ولادة ابنتى .

— أكلام صغير كهذا يجعلك تطلب أن أترك ابن ابنى يولد فى بيت

غير بيته ؟ .. اسمع يا شيخ مأمون ، إن روحية لن تترك بيتى لا قبل

الولادة ولا بعد الولادة إن شاء الله .. وإذا كلمتنى فى هذا الأمر مرة

أخرى لمجرد خشية كلام صغار فستكون قطيعة بينى وبينك ..

— لا قدر الله ! أنت كبيرنا وبيتك بيت الجميع ، فلا عجب أن

يكون بيت حفيدك وأم حفيدك ..

- وابنتك ابنتى على كل حال .
- توكلنا على الله . السلام عليكم ..
- ألا تزور ابنتك وتدعو لها ..
- أخشى أن أثير في البيت اضطرابا .
- المرء لا يثير في بيته اضطرابا أبدا . ادخل على بركة الله .

* * *

حل موعد الولادة ، ولكن روحية وحميدة ومبروكة فوجئ
جميعا بما لا يتوقع أحد ..
بدأت الآلام ..
وسازعت مبروكة تطلب الطبيب في التليفون ، وطلبت عادت
ترافق الوالدة ..

ولكن الآلام لم تدم إلا دقائق قليلة ، ثم رأت مبروكة أن الولادة
تتم فعلا . سبحان الله العظيم ! .. بكر تلد بهذه السهولة التى لم أر لها
مثيلا فى اللاتى ولدن ثمانى مرات وعشر ! وقبل أن تكمل ذهوها
كانت تستقبل المولود على يديها نظيفا طاهرا كأنما قام الملائكة
بتحميمه قبل أن يولد . وقامت مبروكة فى خبرة القابلة العجوز بكل
ما يجب القيام به فى أحوال الولادة ..

وحين جاء الدكتور جابر كان الطفل قد رضع من أمه وكان

— ٣٠ —

كلاهما نائما ..

منصور .. فأنى منصور من الله أن لم يضل عقلى حين فقدت أباه ، وهو منصور من الرحمن الرحيم ليكون نصرا لى فى مصابى . وهو إن شاء الله منصور إلى الحق والصراط المستقيم .. منصور هكذا ندرت أن أسميه وأنا متعلق بأستار الكعبة ، وعند شباك الرسول ﷺ ..

منصور هو إن شاء الله .

وإذا كان الطغيان قد ألغى تعليم القرآن ، فأنى بقوة الله أقوى من إرادتهم ولن يذهب إلى المدرسة إلا وقد ختم القرآن .. هنا فى بيتى وعلى يد جده الشيخ مأمون . وسبحان الذى حرم وسبحان الذى وهب ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

كان منصور منذ طفولته ذا جاذبية آسرة ، لا يراه أحد إلا كبر لله فقد كان فى وجهه حب وإيناس . ومن عجب أنه وهو الطفل يجعل المقرب منه يحاول أن يرضيه بكل وسائل الإرضاء .. ويسعد جليسه غاية السعادة إذا ابتسم ، ويشعر مرافقه أنه هو الذى يتسسم لا الطفل ..

* * *

— ٣١ —

أذن الله للحاج عبد الهادى أن يبر بقسمه ، وختم منصور القرآن وهو فى العاشرة من عمره فلم يتأخر عن رفاق سنه فى المدرسة إلا سنتين .. وما ستان فى عمر الزمان ؟

* * *

حين كان يأتى الشيخ مأمون ليعلم خفيده كان يلاحظ فى السنوات الأخيرة من حفظ منصور للقرآن أن ابنته روحية تضوى ويشتد بها الهزال ..

— يا ابنتى ألا تأكلين ؟

— يا أبى كيف ؟ هل يستطيع الإنسان أن يعيش بغير أكل ؟ ..

— هزالك يشتد لعلك تخجلين أن تأكلى ..

— أيتجل الإنسان فى بيته .. وأنت تعرف أننى أقوم بشئون البيت

جميعا ، وأن حماتى خالتى حميدة قد تركت كل شىء لى وهى سعيدة

بذلك ، فممن أخجل إذن ؟

— إذن لا بد أن هناك شيئا يسبب هذا الهزال ..

ودخل الحاج عبد الهادى مرة وسمع هذا الحوار ..

— أنت محق يا شيخ مأمون ، ولهذا طلبت الآن الطبيب دكتور

إسماعيل حسنى ليقول لنا رأيه ..

وجاء الطبيب وقال :

— ليس بها شيء عضوى ، وربما تحتاج إلى بعض المقويات ..
وارتاح الحاج عبد الهادى والشيخ مأمون لهذا القول وحمدا الله ،
وكان منصور يرقب هذا جميعا بقلب واجف محاولا ألا يشعر به
أحد . غير أن عيني أمه كانتا ترقبانه فى تطلع وسعادة أنه مهمم
بشأنها .. ورأت فى محياه أنه غير مطمئن لكلام الطبيب وأنه لم يسارع
إلى تصديقه كما فعل جداه فإذا هو يقول لهما :
— لا بأس أن نجرب دواء هذا الطبيب بعض الوقت ثم نسأل طبيبا
آخر .

وضحك الجدان فى سعادة غامرة .. فالرأى سليم وسكوت
منصور طول فترة وجود الطبيب وعدم مشاركته الكبار فى كل ما دار
من أحاديث ، أثار فى نفس الجددين معا الكثير من الإعجاب ..
وبمناسبة ختام منصور القرآن أقام الحاج عبد الهادى ليلة لله
سبحانه وتعالى تداول فيها مشاهير قراء القرآن قراءة القرآن ، وقام
المشايع بعمل الخاتمة ، ووزعت الصدقات على الفقراء والمعوزين ،
وكانت روحية هى التى تقوم بشئون الليلة جميعا التى استمرت إلى
الصباح ..

وقبل أن يترك المشايخ البيت جاء من يطلب إليهم البقاء .. لقد
ماتت روحية والليلة فى ختامها الأخير ..

كأنما كانت على موعد مع إبراهيم أن تلحق به حين تطمئن على مستقبل منصور .

وكأنما خلقت روحية لتقدم منصور إلى الحياة وترعاه حتى يطمئن إلى الحياة ويهدأ مستقره فيها ، ثم تودعه لتستقبله يوم يريد الله أن يضمه إليه .

حزن منصور حزنا شديدا ، ولكن العجيب أنه لم يشعر بأى لون من الهلع أو الجزع .. فقد اطمأن قلبه إلى الإيمان وهو من حفظة القرآن وحمله في قلبه .

بكى بكاء حزن لا خوف ، وعرف الأسى الآخذ الشديد الذى يعرف الناس حين يفقدون أمهاتهم . ومن كالأم حبا وتضحية وحنانا وحدا وشفقة وإثارا ؟ فقد كان حب منصور لأمه حبين في وقت معا .. فقد كانت أمه وأباه .. وإن جده عبد الهادى يسكب عليه العطف والحب ألوانا وأفانين ، ولكن هل في الدنيا جميعا شئ كنداء الأب لولده ذلك النداء الذى يكاد الأب يضع قلبه فيه .. نداء لم يعرفه منصور ولكنه أحسه في أصوات الآباء وهم ينادون أبناءهم ، وافتقده هو لنفسه ولم يسمعه ..

— لحكمة يعلمها ربي ويده أرادنى أن ألقى الحياة بغير أب وبغير أم ، ولكنه سبحانه لطف بى فأحاطنى بقلوب حانية .. وما يريد الله (خشوع)

كائن ، والحمد لله على ما شاء حمدا يرضيه في عليا السماوات ..
وسارت الحياة كما تعودت أن تسير دائما ، ومرت السنون وربما
كانت وفاة روحية سببا في أن يشعر منصور أنه مسئول عن نفسه في
خاصة شأنه . أما المأكل فهو مبدول ، وأما الملبس فهو يصل إليه
بطريقة تلقائية .. فقد كان عبد الوارث يصحبه في أول الشتاء
ويشترى له ملابس الشتاء ، وكذلك يفعل في الصيف .. وكان
ملبسا من أحسن الأنواع دائما ..

أما من يلبسه هذا الملبس ، ومن يؤنسه حين يعود متأخرا من
المدرسة ويتناول طعامه وحيدا .. ومن يؤنسه إذا نبا به مضجع وعز
عليه نوم ، ومن يسمع منه إذا أحب أن يقول وأن يروى عن مدرسته
وصحابه ونفسه ، لم يبق له إلا الله . وكانت نفسه ينير جوانبها القرآن
والسجية النقية والصفاء الذى يهبه الله لبعض النفوس ، فيشيع به
الرضى في حياتهم .. والرضى أسمى درجات السعادة . وحسبك أن
الله وهو الله قال لنبيه وهو نبيه : ولسوف يعطيك ربك فترضى ..
أما في المدرسة فقد صاحب منصور الأصدقاء وأحسوا جميعا أنه
متميز عنهم بحفظه للقرآن .. ثم هم في مدرسة المركز يعرفون قدر
الحاج عبد الهادى ويسمعون من آبائهم ثناء عليه .. وهكذا كانت
تحيط بمنصور هالة من العلم وكرامة الأسرة في وقت معا .. وأصبح

إخوانه الطلبة ينظرون إليه نظرة خاصة فيها حب وفيها احترام وتقدير . وفي حياة التلاميذ وفي ساعات اليوم الدراسي تقع قصص متتابعة صغيرة لا تروى ولكنها تجعل كل تلميذ يكون رأيه عن الآخر .. في فصول الدراسة .. في مناقشة الأساتذة .. في ملعب الفسحة .. تتشابك خيوط من الحكايات التي تمر في حياة الإنسان فلا يلقي إليها أى التفات .. وتدور مناقشتها وتنتهى دون عنف في الخصومة أو لجاجة في الرأى . ولكن التلميذ مع حكاية تتبعها حكاية ومناقشة في إثر مناقشة يكون رأيه عن زملائه حبا أو غير حب قد لا يصل إلى الكراهية ، وإعجابا أو عدم إعجاب قد لا يصل إلى الاحتقار .. ومن هذه المشاعر تتكون الصداقات ، وبهذه الصلات تكونت صداقة وثيقة بين منصور وأمين عبد الصادق . فقد أعجب أمين برفيق فصله منصور وأعجب به منصور ، وتكونت صداقة بينهما قوية العرى يخالطها الإعجاب . وقد كان أمين ابن أسرة ثرية ثراء واسعا وكان أبوه يعمل بالتجارة . وهو بطبيعة الحال صديق للحاج عبد الهادى صداقة بعيدة في أغوار الزمان . وصديق لأخيه الأصغر أيضا ، ولكن صداقة الآباء لا تعنى بالحقم صداقة الأبناء . ولكن إن كان الآباء أصدقاء فصداقة الأبناء — خاصة في سن منصور وأمين الباكورة — تكون حميمة تجدد التشجيع والتبريك من الآباء ،

— ٣٦ —

- وأصبحت صداقة منصور وأمين شهيرة في المدرسة .
- وكان منصور حريصا أن يقيم صلاة الظهر في موقتها في المدرسة وكان يصلبها معه أمين ، وكان كثير من التلاميذ أصدقاء أو كانوا مجرد زملاء .. وكانوا يصلون على حصير الحاج أبو العلا فراش المدرسة .
- وفي يوم كثر المصلون حتى لقد نبئت فكرة في ذهن منصور ..
- جدى عندي فكرة .
- قل يا شيخ منصور ..
- عجيبة أنك قلت يا شيخ .
- لقد أردت أن أدلك فقط ..
- ولكن القلب يتفق تماما مع ما سأحدث فيه .
- خيرا ..
- لقد بنيت جامعا حين استجاب الله لك دعائك أن تنجب أبى ..
- فلنفرض ..
- فما رأيك لو أقمت جامعا صغيرا لوجه الله فقط ، ودون نذر منك ، واستجابة من العلى القدير ..
- أفعل .. ما المناسبة ..
- أنا لا أريد منك إلا مسجدا صغيرا في المدرسة فنحن نصلى

الظهر في المدرسة ، وأحيانا في الشتاء يحل موعد العصر مبكرا ونصليه هناك أيضا . والتلاميذ يتزاحمون على حصير متهرئ ولا يتسع لهم فيصلون على البلاط . وصحيح أن الله أكرم نبيه ﷺ بأن جعل أرضه كلها مسجدا لعباده المسلمين إلا أن هؤلاء تلاميذ صغار وقد يصيهم البلاط بالبرد .

— لا بد أن تصبح محاميا يا منصور ، ولو أنك غير محتاج لهذه المرافعة كلها لتكسب القضية فإنك قد كسبتها منذ أبدت رغبتك ..
والمال مالك وما أنا إلا حارس عليه وتوكلنا على الله .
— بل انتظر يا جدى حتى أكلم ناظر المدرسة ..
وهو كذلك ..

وفي اليوم التالى ذهب منصور فاستأذن أن يرى حضرة الناظر الأستاذ وجدى عبد العال ..

— إننا نريد أن نقيم مسجدا بالمدرسة ..
— الميزانية لا تسمح يا أستاذ منصور .
— جدى سيقم الجامع .

— حقا ؟

— نعم .

— أين نيينه ؟

— ٣٨ —

— فى الفناء .. أنا وإخوانى وجدنا له مكانا مناسباً ..

— ولكن أيرضى التلاميذ أن نضيق عليهم الفناء ؟ ..

— هل لى يا حضرة الناظر أن أقترح اقتراحاً ؟ ..

— قل .

— إن الله يقول فى كتابه العزيز : أمرهم شورى بينهم . اجعل

التلاميذ يدلون برأيهم فى عملية ديمقراطية .. حتى يعرفوا أن الجامع
بنى برغبتهم ولم يفرض عليهم .

— موافقون .. ويشترك أيضاً المدرسون فى إعطاء رأى .

— وهو كذلك ..

— وهو كذلك ..

وتم أخذ رأى فإذا هو إجماع لم يتخلف عنه المسيحيون من تلاميذ
أو مدرسين .

وكان المسجد صغيراً وكانوا فى أوائل السنة الدراسية فصل

التلاميذ فى الجامع قبل الامتحانات بشهرين ، ورفض منصور أن
يكون هو المسئول عن الجامع ..

— إن جدى هو الذى بناه .. أكان بناه حتى أصبح أنا مسئولاً

عنه.. وهل ترون أن أظل دائماً أذكر زملائى أن جدى هو الذى بنى
الجامع ؟ ..

- فماذا ترى ؟
- تتكون لجنة وتنتخب رئيسا لها ، ولن أكون أنا منها .
- وكيف تتكون اللجنة ؟
- بنفس الطريقة التى بنى بها المسجد ..
- بالانتخاب ؟
- ينتخب التلاميذ اللجنة ثم تنتخب اللجنة رئيسا .. أما أنا فلن أُرشح نفسى .
- ونعم الرأى ..
- وتمت عملية الانتخاب وأسفرت عن انتخاب أمين عبد الصادق رئيسا للجنة الإشراف على المسجد ، وقال أمين فى أول اجتماع للجنة إن أباه متبرع بمصاريف المسجد من أجر الفراش إلى أجر المؤذن .. أما الإمام فسيكون الشخص الذى كان يؤمننا دائما منصور النقيب فهو أحفظنا للقرآن .
- وقال وهبى عبد المجيد عضو اللجنة ..
- طبعا إلا فى أيام الجمع ، فقد يأتى إلى الجامع من هم أكبر منه سنا ومن حفظة القرآن أيضا ..
- وقال أمين ..
- أحسنت يا وهبى ، وستتفق مع عالم جليل ليأتى إلينا فى أيام

الجمع يؤمنا ويلقى علينا دروسا دينية أيضا ..
وهكذا استقر شأن الجامع وأصبحت قصته دائرة على كل لسان ،
حتى لقد كتبت عنه الأهرام مشيدة بما قام به التلاميذ والمدرسون
وأهل الخير الذى شاركوه فى أمره ..

* * *

من بين مدرسى المدرسة عبد العزيز المشد يمتلك قلما غالى الثمن
يتباهى به على زملائه وتلامذته على السواء .. وهو حريص فى كل
حصّة أن يأمر التلاميذ بحل مسائل الحساب ليخرج هو القلم ويكتب
به أى شئ ليراه التلاميذ فى يده . فهو أحيانا يكتب فى كراسة
التحضير أو يكتب به خطابات لو رآه مفتش يكتبها لوجه إليه اللوم
الشديد .. فخطابات الأقارب والأصدقاء ليس مكانها فصول
الدراسة ..

وإن كان ذلك ممنوعا على التلاميذ فمنعه على المدرسين من باب
أولى فالمفروض أن يكون المدرسون للتلاميذ قدوة .. ولكن عبد
العزيز المشد معذور فيما يفعل ، فكيف له أن يظهر القلم ويتباهى به
إن لم يكتب فى كراسة التحضير أو يكتب به الخطابات وكلاهما ممنوع
أثناء الحصص .. فالكتابة بالقلم على السبورة مستحيلة .. وإذا
أخرج القلم وتباهى به دون أن يستعمله فسيصبح بين التلاميذ

أضحوكة .. على أن التلاميذ — على كل حال — لا يفوتهم شيء .
فقد أدركوا بحواسهم الساخرة ما يريد الأستاذ عبد العزيز أن يظهره
من مفاتن قلمه الذى يتصور أن أحدا غيره لا يملك مثالا له فى
الوجود .

وفى يوم بينما الأستاذ عبد العزيز يكتب بالقلم فتح باب الفصل
ودخل مفتش الرياضة وفوجئ به الأستاذ عبد العزيز وتولاه الهلع
والذعر فى وقت معا .. ووضع القلم على المنضدة دون أن يعنى حتى
بوضع السن فى غطاءه ، مع أنه فى الأحوال العادية يحرص كل الحرص
على إحكام الغطاء إحكاما يستوثق معه أن القلم لن يفتح فى جيبه .
انتفض الأستاذ عبد العزيز قائما مرتعشا وهو يقول : قيام ..!
تخلجت فى فمه حتى ما كادت تبين ..

وشذره المفتش بنظرة لاهبة وهو يقول :

— امض فى الدرس يا أستاذ ..

وراح الأستاذ عبد العزيز يسأل التلاميذ وراحوا يجيبون ، وانتهت
الحصة وخرج المفتش ولحق به عبد العزيز ناسيا القلم ، فقد كان
حريصا ألا توضع نقطة سوداء فى التقارير التى تكتب عنه حرصا
مضاعفا .. فإن كل أمله أن ينقل إلى القاهرة حتى يتم زواجه من ابنة
عمه وجنات التى مضى على خطبتها له ستان ، وتم إعداد شقتها

وأصبح لا ينقصه إلا أن ينقل إلى القاهرة حتى تمضى العروس فترة الزواج الأولى مع أمها وأبيها .. هكذا تصمم أمها الست أُلطاف .. فما له إذن لا ينسى القلم ويسارع إلى سعادة المفتش يسترضيه ويستجديه ، ويبدى له ما يعن له من أعذار .

خرج التلاميذ من الفصل فقد حلت الفسحة الأولى ، وتصادف أن نادى وليد عبد الموجود زميله جرجس حنين ..

— يا جرجس ألا تخرج ؟

— لا ، سأكمل الواجب للحصة القادمة .

— تضيع عليك الفسحة ..

— بقى لى سطران أكتبهما وألحق بك فوراً ..

وخرج الجميع وقد علموا أن جرجس باق فى الفصل .. وأوشكت الفسحة على الانتهاء . وتذكر منصور أنه لم يقرأ الواجب بعد كتابته فسارع إلى الفصل يقرأه قبل أن تبدأ الحصة .

والفصول فى المدرسة مبنية على الطراز القديم للمدارس ، فهى ذات نوافذ تطل على شرفة طويلة ويستطيع الواقف فى الشرفة أن يرى داخل الفصول ويرى فناء المدرسة أيضا .

فحين أصبح منصور أمام نافذة فصله الأولى رأى وجدى حسنين يأخذ قلم الأستاذ عبد العزيز ويخرج به مسرعاً ، وقبل أن يصل

منصور إلى النافذة الثانية للفصل كان وجدى قد أواه ظهره دون أن يراه .

وذهل منصور لا يدري ماذا يفعل ؟ أيفضح صديقه ؟ ..
أيسكت عن سرقة رآها بعينيه ؟

عاد إلى الفسحة فلم يعد يفكر الآن في إعادة القراءة للواجب ،
وتولاه صمت واجم حزين يختلط بالحيرة والألم أن زميله وجدى
لص .

انتهت الفسحة وعاد التلاميذ إلى الفصل ، وقبل أن يجلسوا دخل
الأستاذ عبد العزيز مسرعا يبحث عن القلم ، فقد استطاع أن يحل
مشكلته مع المفتش وحث له أن يبحث عن قلمه العزيز .. لم يجده طبعاً
فأوشك يجن وصاح بالتلاميذ :

— قلمي !

وصاح بعض التلاميذ ما له ؟ وصاح آخرون اشمعي ؟ ولكن
الأستاذ عبد العزيز كان في حال لا تسمح بأى تهاون فقد احمرت عيناه
وارتعشت شفاته ..

— القلم ! أقتلكم جميعاً .. القلم نسيته هنا مدة الفسحة فقط .

من آخر تلميذ خرج من الفصل ؟ ..

وهوم الصمت على التلاميذ لحظات ، ثم قال جرجس حنين :

— ٤٤ —

— أنا يا أستاذ آخر تلميذ خرج من الفصل ، بل الواقع أنني بقيت
بالفصل دقائق لأكمل واجبا لم أكن أكملته ..

فصاح عبد العزيز :

— واجبا لم تكن أكملته !! هل سرقة قلمي واجب يا سي
جرجس ؟ .. هات القلم .

— صدقني لم أره إلا في يدك ..

— كان هنا على المنضدة وأنت وحدك في الفصل ..

— ليس هذا شأني . إنما ما زلنا في المدرسة . فتشني ولو أن هذا
أمر لم يحصل لي في حياتي مطلقا ..

— أفتشك ؟ أظنني عبيطا لدرجة أنني أتصور أنك ستبقى القلم

معك ..

وجاء مدرس الحصة التالية الأستاذ متولى أبو المجد ..

— خير يا أستاذ عبد العزيز ؟ ..

وروى له عبد العزيز القصة ، ودون أن يحس متولى وثبت ابتسامة

على شفثيه ..

— أضحك يا متولى ؟ ..

— لا أقصد والله ، ولكنني أعلم مكانة هذا القلم عندك ..

— نعم يا سي متولى ..

— ٤٥ —

— أول هدية من حبيب ... أقصد من خطيتك ، ولك حق أن
تحرص عليه وتعتز به .

— ليس أمام الأولاد يا متولى ، والحقيقة أننى لم أجد قلما أراحنى
فى الكتابة مثل هذا القلم ..

— والآن ماذا ترى ؟ ..

— لا بد أن يظهر القلم .

— والحصّة ؟ ..

— فى ستين .. أقصد أنى آسف ، ولكن ماذا أفعل ؟ ..

— أتشك فى أحد ؟

— بل إننى متأكد من السارق .. الولد جرجس حنين ..

— خذه إلى الناظر وأكمل القضية .

— وهو كذلك ، تعال يا سى جرجس ..

وخرج جرجس مع الأستاذ عبد العزيز ودمعة تطفر من عينه
تبعثها كرامة جريئة أن تفيض ، ويمسك بها شعور بالظلم أن تسيل ،
فهى حائرة فى مكانها على جفنه لا تنضب ولا تنحدر .. وراح الأستاذ
متولى يشرح الدرس وكان منصور قد استقر على رأى .. وانتهت
الحصّة .

وسارع منصور إلى وجدى وانتحى به ناحية ..

— ٤٦ —

— ضع القلم في درج منضدة الأستاذ عندما نخرج في الفسحة ،
وأعاهدك ألا يعرف أحد .

— ماذا .. ماذا تقول ؟ ..

— لقد رأيته بالصدفة ، ولا ترضى أن يضيع مستقبل زميل من
أجل فعلة هو برىء منها كل البراءة ..

وأطرق وجدى خجلا ..

— وتسترها على ؟

— أسترها ..

— وتنساها لي ؟ ..

— إذا لم تتكرر .

— لن تتكرر وأقسم لك .

— توكلنا على الله ..

وفي الفسحة قال منصور للتلاميذ :

— لماذا لا نبحث في الفصل على القلم لعله في جوانب الفصل ..

أو لعل أحدا من الفراشين وضعه في مكان ما .. كل واحد منا يبحث
في مكتبته ، أما أنت يا أمين فابحث على منضدة الأستاذ فإن عليها أوراقا
كثيرة لعله نائه بينها ..

وطبعا وجد أمين القلم وأعطاه لمنصور ، وقال منصور: هيا بنا

نبشر الأستاذ عبد العزيز .

وخرج وتبعه بعض زملائه ..

— هذا هو قلمك يا أستاذ عبد العزيز .. أرايت كم ظلمت

جرجس !..

وصاح عبد العزيز وكأنه وجد كنزا ..

— الله يخليكم .. ألف شكر .. ألف شكر .. آسف يا جرجس يا

خويا .. آسف يا بنى .

وحيثذ عرفت دمة جرجس سبيلها فسالت وتبعتها دموع

كثيرة ، بل وبكاء ونشيج .

وذهل عبد العزيز من الموقف وراح يربت كتف جرجس ثم قال :

— ماذا يرضيك ؟.

— لقد أرضاني الله يا أستاذ عبد العزيز ..

— سبحانه وتعالى ..

.. وخذ هذا كتاب جديد اشتريته ولم أقرأه ، سأكتب عليه

إهداء لك أعتر في وأصفك بما أنت أهله من الخير ..

صاح أمين :

— على أن يكون الإهداء بالقلم الذى وجدناه يا أستاذ عبد

العزيز ..

— ٤٨ —

— طبعا وهل أكتب بغيره .

وضحك الجميع حتى جرجس .

* * *

مضت أيام على هذه الواقعة ، وسأل منصور أمين :

— متى تجتمع لجنة الجامع ؟

— غدا .

— أتسمح لي بالحضور ؟

— طبعا .

وفي اللجنة قال منصور :

— إن ما حدث لأخيना جرجس يجعلنى أقترح عليكم اقتراحا .

— ماذا ؟

— أن نكون لجنة فى المدرسة لإحقاق الحق . لا نرى شيئا يضر

بالمجتمع إلا ونحاول أن نغيره بالحسنى وبأهداية ونجادل المخطئ بالتى

هى أحسن ، فالله يقول لنبيه ﷺ : ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب

لأنفضوا من حولك ﴾ والله يقول : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ .

قال أمين :

— هذه فكرة رائعة .

وقال منصور :

— ٤٩ —

— ومن يدري لعلها تبدأ معنا في المدرسة ، ثم تظل تجمعنا إلى آخر العمر .

— وستكون كذلك إن شاء الله .

وقال آخر لمنصور :

— مد يدك .

فمدها .

— ومدوا أيديكم إلى يدي .. اقرءوا الفاتحة على هذا الميثاق .
توكلنا على الله .

(خشوع)

٣

حين مرض الحاج عبد الهادى مرض الشيخوخة كان راضيا غاية
الرضا ، فقد كان منصور قد انتظم فى كلية الحقوق فى ذلك العام وهو
فى العشرين من عمره .

ولم يطل المرض بالحاج عبد الهادى فقد اختاره الله إلى جواره دون
أن يشقى بمرض طويل ، فما هو إلا أسبوع واحد نام فيه ثم انتقل إلى
الباقية راضيا مرضيا .

وقد حزن منصور لموت جده الذى لم يعرف له أباً سواه ،
والحزين لا منطق له فليس يعنيه أن الحاج عبد الهادى كان قد تجاوز
الثمانين وأن كل حى إلى فراق . واستمسك منصور بإيمانه العميق ،
وشارك منصور فى حزنه عبد الوارث الذى كان يرى فى عبد الهادى
أباه هو أيضا وقد استطاع انشغاله بشئون المأتم أن يلهيه عن أحزانه
بعض الشئ .

كان أهل المهديّة أوفياء للرجل ، فلم يبق فيهم أحد لا يمسكه عذر
إلا ذهب إلى الجنائزة والمأتم جميعا . ولكن عبد الوارث لاحظ أن

المعزين الذين جاءوا لمنصور أكثر بكثير مما يتوقع أحد لشباب في العشرين من عمره . وكان عبد الوارث قد سمع عن الجمعية التي تكونت في المدرسة ثم اتسع أمرها ، ولكنه لم يكن يتصور أن الشباب المنضم إليها بهذه الكثرة .

كما لاحظ عبد الوارث أن أمين لم يترك منصور لحظة منذ مرض جده . بل هو يلازمه ملازمة تامة ، ولم يذهب إلى كلية الحقوق التي كان انتظم فيها هو أيضا طوال الأيام التي بقى فيها منصور مع جده . حين انتهت أيام المأتم وحان لمنصور أن يعود إلى كليته .

— يا منصور أنت حتى الآن ...

— أعرف يا عم عبد الوارث ، والأمر لا يحتاج إلى كثير كلام ، ولهذا سمحت لنفسى أن أقاطعك . إننى أختارك أنت وصيا على ، وحتى حين أبلغ رشدى فى العام القادم فأنت المسئول وحدك عن ثروتي وكأنها ما زالت فى يدي جدى تماما ، وضع لى حقى فى البنك وأنا أعرف من أنت فلا حساب بيننا ، فأنا واثق إن حقى سيزيد فى يدك لن ينقص .

٤

حين تخرج منصور في كلية الحقوق كانت أمواله في البنك أكثر مما توقع بكثير . فقد كانت مطالب منصور في أثناء الدراسة قليلة كل القلة ، فإن فيه زهدا طبيعيا عن بهرج الحياة وهو نقى كل النقاء .. وعبد الوارث أمين كل الأمانة . وكان أحيانا إذا وجد صفقة مؤكدة الربح مستحيلة الخسارة ، كان يدخل بأموال منصور فيها ويضع الربح كاملا باسم منصور مع أمواله في البنك .

أبى منصور أن يترك المهديّة بل أصر أن يبقى بها ، وقام بالتمرين في مكتب الأستاذ عز الدين الديوانى ، وزامله في المكتب أمين عبد الصادق . وبعد انتهاء فترة التمرين فتح منصور مكتبه في شقة بإحدى عماراته كان يعدها لذلك . وكان المكتب باسمه وباسم صديقه أمين عبد الصادق الذى شاركه في المصاريف .

ومكاتب المحاماة في المراكز سريعا ما يقصدها الزبائن ، فالناس يعرفون المحامين معرفة وطيدة ، ويعرفون آباءهم وأجدادهم وكل ما يحيط بهم .

فلم يكن عجباً أن يبدأ المحاميان الناشئان عملهما في المحاكم في نفس الأسبوع الذي افتتحا فيه مكتبهما بقراءة القرآن الكريم .
وتمضى الحياة في طريقها بمنصور لا يميل لها سمت ولا يعوج به قصد . فقد كان يعرف ما يريد ، وما يجب أن يفعله وما لا يجوز له أن يفعله .

* * *

فواز صالح وتوفيق شافعي وعدلى عبد المسيح وعاطف منير شباب من قرية المهديّة لم يكتب لهم أن ينالوا من التعليم إلا ما يسمح لهم بالقراءة والكتابة . أما فواز صالح وعدلى عبد المسيح فيعملان في إصلاح السيارات بورشة الأسطى فتحى الصلحى ، وأما توفيق شافعي فنجار ، ويعمل عاطف منير كمنجد ، وهذان الأخيران لا يستقر بهما مقام في ورشة وما هذا بعجيب ، بل العجيب أن يستقر فواز وعدلى بورشة الأسطى فتحى الصلحى . ولعل السبب في ذلك أن الأسطى فتحى الصلحى لا يبدأ عمله قبل الحادية عشرة من صباح كل يوم ، وهكذا يستطيع كل من فواز وعدلى أن يبقيا من سهرة الحشيش والخمر التى يعكفان عليها كلما وجدا ثمنها ، ويشاركهما فيها توفيق وعاطف .

فواز صالح ابن الحاجة حسنية الصعيدى التى كانت تقوم بحلب

البقر والجاموس فى بيت الحاج عبد الهادى . وبفضل هذه الصلة وجدت حكاية فواز تقحم نفسها فى الحديث عن منصور . جمعت العمال الأربعة ليلة ليلاء لا يملكون فيها ما يشتري سيجارة وقال قائلهم :

— أهذا كلام ؟ .. أربعة شباب مثل الورد لا يجدون ثمن زجاجة كونياك .

طيب نقول قرش الحشيش بالشئ الفلانى ، أنعجز عن شراء زجاجة كونياك ؟

— من قال إننا مثل الورد ؟ إننا مثل الزفت السائح ؟
مثل القطران . وهل هناك أخيب منكم .. أقصد منا جميعا ؟

— وماذا نعمل ؟

— كثير ..

— مثل ماذا ؟

مثل يا سيدى المرأة الحاجة جميلة الصيرفى ، أم الولد كامل الصيرفى الذى يعمل طبيا بمصر والذى يكاد يجن من الكبر . المرأة وحدها وعندها صيغة وأموال ..

— حاسب . حاسب ماذا تقصد ؟

— ألم تفهم ما أقصد ؟

— تقصد يعنى ..

— نعم أقصد يعنى ..

— أهذا معقول ؟

— انتظر ... كم الساعة الآن ؟

— التاسعة .

— سأستلف ثمن زجاجة كونياك ونفكر فى الموضوع .

وكانت الزجاجة الكلمة الأخيرة فى النقاش ، وهجم أربعتهم على السيدة العجوز وقاومت فكبلوها ، وضربها أحدهم بعود خديد استخلصه من كرسى أسيوطى وتم القتل .

وقبل أن يطلع الصباح كان الشرطة قد توصلوا إلى الجناة الأربعة وألقوا القبض عليهم .

إلى من تذهب حسنية الصعيدى ؟

فواز اعترف اعترافا كاملا فى محضر الشرطة وفى النيابة ، وكان يرافقه أمين عبد الصادق محاميا من المكتب ، حتى إذا تمت التحقيقات وجاءت حسنية إلى المكتب قال لها منصور :

— يا خالة حسنية أليس لك ابن نال الإعدادية ، وأظنه يعمل

بالمديرية ؟

— نعم خضير ، الحاج عبد الهادى الله يرحمه هو الذى عينه .

— أحضره معك وتعالى بكرة .

وفى اليوم التالى :

— اسمع يا خضير ، أنا لم أرد أن أقول لأملك وحدها الكلام الذى

سأقوله لك .

— تفضل يا أستاذ .

— أخوك اعترف .

— نعم .

— وارتكب الجريمة .

— نعم .

— أنا لا دفاع عندى عنه إلا حالة السكر ، ولكننى لا أستطيع أن

أكذب ، فإن يمين المحاماة يمنعنا من الكذب .

— يمين ماذا يا أستاذ ؟

— ألم تسمع ؟

— يا أستاذ منصور أنت لا تعرف مكانتك عندنا .

— مكانتى ، هذا لأننى صادق .

— بصرف النظر .

— وما دخل مكانتى فيما نتكلم فيه ؟

— أقصد أن هذه قضية يتمناها كبار المحامين ، وسعادتك تبدأ حياتك .

ثم التفت إلى أمه .

— أمه ! قولى له الأستاذ صدقى البحراوى قال لك ماذا ؟

— وحياتك يا سى منصور قال لى ادفعى ألف جنيه وأترافع فى هذه القضية .

وقال منصور .

— أنا لا شأن لى بالآخرين . الكلام لك يا خضير ، إذا قبلت أن أترافع معتمدا على السكر البين قبلت القضية ، وإلا فأنا معتذر .

— لا حول ولا قوة إلا بالله . قضية ستجعل اسمك كالطبل تعتذر عنها . هل أحد يصدق ؟ وتقول اليمين يمنعك من الكذب . أهذا كلام ؟ .. المهم أمرك . سلام عليكم !

التفت منصور إلى حسنية :

— لا تزعلى منى يا خالة حسنية . كان لا يمكن أن أجعلك تفهمين ، بل إنك لا شك حتى الآن لا تفهمين موقفى . لا عليك . أمرى إلى الله ... هكذا خلقت .

— والله يا بنى أنا لا أفهم شيئا .

— لا عليك .

— المهم هل سترافع فى القضية أم لا ؟

— ٥٨ —

— خضير سيفهمك على كل شيء .

— هيا يا أمه ... سأخبرك ... هيا يا أمه ... لا حول ولا قوة
إلا بالله .

* * *

وما لبثت هذه القصة أن انتشرت في المركز جميعه . فما سمع
الناس من قبل محاميا يرفض قضية صغيرة كانت أم كبيرة . فكيف
والمحامى ناشئ جديد والقضية شهيرة جهرة ؟ ..



نشأت الريعى من أعيان المركز .. أو كان من أعيان المركز قبل أن يختاره الله إلى جواره . وحين لقي الله لم يكن عنده فى الحياة إلا فتاة فى ريق العمر هى سامية ، باع لها كل ما يملك حتى لا يرث معها أحد من أقاربه . وارتضى الأقارب ما فعله الأب مرتين أنه عمل طبيعى يحاول به الأب أن يحافظ على مستقبل ابنته . واحد فقط من هؤلاء الأقارب ثار ثورة عارمة لأن نشأت حرمه ما كان سيسقط بين يديه من الميراث . وأغلب الأمر أنه ثار لأنه معروف أنه كبير مجرمى المنطقة ، واستكبر أن يعدو على حقه قريه ويتحداه .. مع أنه الذى تعود أن يعدو على حقوق الناس ويتحداهم . ومن فى المركز لا يعرف رفعت الريعى ، صاحب الحول المجرم والطول المعتدى ، والذى يثير الرعب فى أنحاء المنطقة جميعها بما تحويه يده من قتله ومن لصوص ؟ ورفعت الريعى ذكى ، فهو مع كل حاكم يحكم يسانده وينافقه وينضم إلى حزبه ويتظاهر أنه من أتباعه . وهكذا وقعت سامية بين فكى حيوان شرس لا ضمير له

ولا خلق ، وهى بلا نصير لها أو معين إلا الله سبحانه وتعالى وكفى به حسيبا ووكيلا .

كان أقارب سامية يعرفون ما يصنعه رفعت بسامية من اعتداء على الزراعة ، وسرقة للمحصول ، ومطاردة الفلاحين الذى يزرعون حدائقها ، وإرهاب لناظر زراعتها الحاج مراد الأشرم . ولولا أن الحاج مراد ذا أقارب وكبرياء لترك الأرض تنعى من زرعتها ، ولكنه كان يقاوم مقاومة غير القادر ، وكفاه شجاعة أنه بقى فى مكانه لم ينكص ولم يتراجع .

وكان الحاج مراد كلما سمع عن محام قصد إليه ، ولكن المحامين كانوا يرتعدون من ذكر رفعت الربيعى ولا يتصورون أن يقفوا خصوما له فى المحكمة . فيرفضون قضايا سامية ويذيعون هذا الرفض ويكافئهم رفعت بأن يوكلهم فى قضايا أخرى ما يلبثون أن يقبلوها فرحين سعداء . وكانت سامية وهى تلميذة فى مدرسة المركز تسمع عن أخبار منصور وما يصنعه فى مدرسته ، وكانت تتبع أنباءه كلها وعرفت موضوع الجامع وموضوع الجمعية التى تسعى إلى إحقاق الحق فاستدعت ناظر زراعتها :

— يا عم الحاج مراد ألم تسمع عن المحامى منصور النقيب ؟ ..
— سمعت كل خير .. وكفاه فخرا رفضه الأخير لقضية كبرى

لأنه أبى أن يكذب ..

— لماذا لم تفكر فيه ليتولى قضايانا ؟ ..

— صغير ورفعت وحش ..

— ليس الصغير والكبر بالسن يا عم الحاج مراد . إنه كبير وليس

صغيراً .. اذهب إليه بقضايانا جميعاً ..

— أمرك ..

وقبل منصور جميع قضايا سامية دون مناقشة ، فقد كان واثقاً من

حقها لعلمه المحقق بإجرام رفعت الريعى وفجوره .. وألسنة الخلق

أقلام الحق . ودesh الحاج مراد ..

— ألا نبحث القضايا معاً يا أستاذ منصور ..

— أنا قبلتها بادئ ذي بدء وسأدرسها ، ثم سأجى أنا إليك وإلى

الآنسة سامية وأتدارس معكما جميع القضايا ..

— أنت رجل ، وأنت ابن رجل ابن رجل أبا عن جد . علم الله

كم عدد المحامين الذين رفضوا هذه القضايا يا أستاذ منصور ..

* * *

حين علم رفعت أن منصور قبل قضايا سامية أرسل إليه مفتاح

أحد رجاله المشهورين بأنهم من القتلة المأجورين . وحين حاول أن

يدخل مكتب الأستاذ منعه وكيل المكتب راضى العنتيبي ..

— أتحب أن تمنعنى ؟ ..

— وأمنع سيدك أيضا إذا جاء هنا . هذا مكتب له حرمة وله أصول ، وعليك أن تنتظر دورك . أم تظن أن مجيئك وعلى كتفك هذا السلاح سيخيفنى ..

إن من يعمل مع منصور إبراهيم النقيب لا يخاف إلا الله وحده ..
أم تظنون أنفسكم يا رجال رفعت أنتم وسيدكم أنكم أصبحتم آلهة فى الأرض . أقعد من القاعدين حتى أستاذك لك ..

وفوجيء مفتاح وخشى أن يرد فيزداد راضى إساءة له . وقعد وانتظر راضى حتى خرج الموكل الذى كان مع الأستاذ منصور ودخل إلى الحجرة :

— مفتاح العبد بالخارج ..

وابتسم منصور ساخرا وكأنه كان يتوقع هذا أو شبيها له ..
— طبعاً معه بندقية ..

— طولها ثلاثة أمتار .

— دعه ينتظر حتى يدخل آخر موكل عندك ..

— هذا ما توقعته منك .

وانتظر مفتاح إلا أنه أحب أن يخفف الحدة التى لقيه بها راضى ..

— حتى ولا فنجان قهوة يا راضى أفندى ؟ ..

— ٦٣ —

— القهوة جائية من غير طلب يا مفتاح .. أنت تعرف من
صاحب المكتب ومن أبوه ومن جده . باهم دائما مفتوح
للضيف ..

— حاسب على بعض الشيء .

— لو كنت عندما قدمت طلبت الإذن بالدخول شأن الأكابر ..

لرأيت منى كل ما يرضيك ..

— غلطة ونساها .

— ننساها إن شاء الله ..

— هل سيطول انتظاري ؟ ..

— هل رأيت أحدا جاء بعدك ودخل قبلك ؟ ..

— الحكاية بالدور إذن ..

— أليست هذه هي الأصول ... بالدور .. لا فضل لعربي على

عجمي إلا بالتقوى ..

— منك نستفيد .

— طبعا ..

— وهل قلنا شيئا ؟ ..

— الحق لا يقال فيه شيء يا مفتاح . إنه الحق .

وحين دخل مفتاح إلى منصور هب فيه في عنف وكأنه فوجئ

بالسلاح الذى يحمله ..

— ماذا ، ما هذا ؟

وفوجئ مفتاح .

— ماذا يا أستاذ ؟

— ما هذا الذى تحمله ؟

— ولا مؤاخذه يا أستاذ ، متعود على حملها ..

— اخرج من هنا واطرکها حيث لا أراها ، وحينئذ أقابلک ..

وفعل مفتاح ما طلبه منه الأستاذ منصور ، وخرج مسرعاً ووضع

البندقية عند راضى وهو يقول له :

— لماذا لم تطلب منى أن أتركها ؟

— حتى لا تحسب أننا نخاف منها أو منك .

— أبقيها عندک الله یخلیک .

— وضعها هنا على الكرسي الذى كنت جالسا عليه .

وحين دخل مفتاح فى هذه المرة وقف منصور وهو يقول :

— الآن نستطيع أن نقول أهلاً وسهلاً ، تفضل يا سيد مفتاح .

— أكثر الله فضلك يا سعادة البیه .

— هل شربت القهوة ؟

— أحسن بن ومن خلقتك .. أحسن بن .

- أتشرب فنجانا آخر ؟
— أنت مشغول وهما كلمتان .
— قلهما .
— رفعت بك الربيعى يريدك أن ...
— ومن رفعت بك الربيعى يا سيد مفتاح ؟
— يا نهار أسود من الحبر الكوييا .
— على مهلك ! أنا فقط ليس لى أصدقاء بهذا الاسم .
— آه .. ربما لا تعرفه شخصا ، ولكن ألم تسمع عنه ؟
— آه .. تذكرت . لعلك تقصد الرجل الذى يجمع حوله
اللصوص والقتلة .
— الله ، الله ، الله ! ما هذا يا منصور بيه ؟
— إذن فهو من تقصده .. ماذا يريد رفعت ؟
— أظن المسألة لم تعد تسمح بأن أقول ما جئت بشأنه .
— قلبه وأنا أخبرك إن كانت تسمح أو لا تسمح .
— كان يريدك أن تشرفه فى البيت .
— شىء عجيب !
— ما العجيب يا سيدى الأستاذ ؟
— شخص لا أعرفه ولا يعرفنى يرسل لى رجلا طويلا عريضا
(خشوع)

يحمل بندقية لأذهب إليه .. ماذا يظن نفسه هذا الرجل ؟

— أنا مجرد خادم عنده ..

— وخادم أيضا . وكيف تتصور أنني سألبى الطلب ؟

اسمع ! أخبر رفعتك هذا أن لي مكتبا يستقبل كل من يأتي إليه .

ولى أيضا تليفون يطلب أن أحدد له موعدا ، وسأرى عندئذ ماذا

أفعل .. شرفت يا سيد مفتاح ، مع السلامة .

* * *

جن جنون رفعت الربيعة ، فقد تصور أى شيء إلا أن يقابل .

مندوبه بهذا الاحتقار ويقابل اسمه بهذا الامتهان . وزاد جنونه أن هذا

الاحتقار كان على ملأ من الموكلين ، وتوقع أن يشيع ما حدث في

المركز كله .

وقد حدث فعلا ما توقعه رفعت وزلزل المركز زلزالا ، فقد كان

الناس ينجسونه رفعت ويمالئون به ويتظاهرون له بالطاعة والخضوع ،

فحين يرون شابا صغيرا في مطلع حياته يصنع به هذا الصنيع ، فمن

الطبيعى أن تزلزل المقاييس عندهم زلزالا ..

وفي بيت عبد العال هنيدى المحامى كان نفر من أصدقائه بينهم

محامون وموظفون كبار يجتمعون في شبه ناد خاص يلعبون الترد أو

الورق ، وإذا بهم يلحظون أن صدق البحرأوى ليس كما تعود أن يروه

تهربجا وضحكا وممازحة ، بل هو في حالة صمت غاضب . ويسأله
عبد العال :

— مالك يا صدق ، زوجتك ضربتك علقه ؟

— يا ليتها ! أنا أحتقر نفسي .

— أصبحت مع الأغلبية التي تكن لك هذا الشعور .

وضحك الجالسون ، إلا أن صدق قطع ضحكهم قائلا في

حسم :

— لا فعلا أنا أحتقر نفسي .

— لماذا لا قدر الله . إنك محام مشهور ومكتبك من المكاتب الهامة

ورب أسرة ناجحة والحمد لله . ماذا بك ؟

— أحتقر نفسي وأحتقر كل الذي نصنعه عندك من إضاعة

للوقت والمال .

— نحن جماعة نشقى طول النهار ونحاول أن نسرى عن أنفسنا

باجتماعنا هذا .. ماذا في هذا ؟

— نحن نحاول أن نسرى عن أنفسنا ونحاول أيضا أن نثير ضجة في

جوانبنا على أصوات ضماثرنا حتى لا تحاسبنا حضرات المحامون هنا .

ألم نرفض جميعا قضايا سامية الربيعي خوفا من رفعت وبقيله شاب من

أبنائنا ، وما فعله ما سمعتم به مع كبير مجرمي رفعت ؟ وتقول لي يا عبد

العال إننى محام ناجح . من الناجح أنا أم هو ؟ أنا الذى سعت وراء قضية الطبيب أم هو الذى رفضها ، والمصيبة إن نظرتة وهو الشاب يتأكد أنها أصدق من نظرتى. الأربعة القتلة إعدام فى حكم يندر أن يكون له مثيل . إن هذا الشاب منصور النقيب يبعث روحا جديدة فى المركز ، أو هو يبعث روحا جديدة فى الوقوف مع الحق مهما تكن النتائج .

وهوم صمت ثم ارتفع صوت مجيد مالك مدير الضرائب :
 — ما هذا الخطاب الطويل عن شاب أرعن يحاول أن يثير لنفسه شهرة ..

لا تتعجل الحكم وانتظر مصيره .
 ويصبح صدق :

— أنتظر مصيره لما انتظره . لماذا لا أشاركه هذا المصير ؟ لماذا لا أعيد قضايا رفعت إليه ، ولماذا لا نعيد نحن المحامين جميعا قضاياهم إليه ونحن نعلم أنه حتى القضايا المتوقعة الكسب منها ملفقة ، والأدلة فيها كلها تزوير وتدليس وغش وخداعة ؟

وصمت المحامون ، وقال عبد العال :
 — لكل منا ظروفه يا صدق .

— يا أخى فى السماء رزقكم وما توعدون . وما تدري نفس ماذا

تكسب غدا وما تدري نفسى بأى أرض تموت . فإن كنا نخاف على المال ربك هو الذى يرزق ، وإن كنا نخاف على النفس فالذى أحيا النفوس هو يميتها . السلام عليكم أنا سأسير فى طريق منصور النقيب ، وليوائم كل منكم نفسه مع ظروفه .

وخرج صدقى وترك الجميع فى صمت عميق لم ينته إلا بخروجهم واحدا بعد آخر فى أثر صدقى ، كأنما كانوا فى غاشية من مخدر ثم أفاقوا وما أفاقوا . وسمع رفعت بهذا الذى حدث فى بيت عبد العال فأدرك أن الأمر خطير ، وضافت به الدنيا فلم يعد الأمر مجرد أموال سامية إنما هو كيانه جميعا وسلطانة وجبروته ، وتجمع الناس حوله مهما يكن سبب هذا التجمع عن خوف أو عن منفعة .

وحين سمع أعضاء الجمعية عما فعله رئيسهم تقاطروا على مكتبه حتى اجتمع منهم عدد كبير ، وقال أمين :

— إن مجيئكم دليل على ذكائكم . إذا كنا نريد إحقاق الحق فإن البداية هى التى بدأها منصور ..

— ولكن كيف نكمل الطريق ؟

قال منصور :

— رفعت حوله الأغلبية الكاثرة من المركز ، كثير منهم عن منفعه ولكن الأغلبية عن خوف . وهو معه السلاح ونحن معنا

الحق ، وأريد اليوم أن نقسم أن نحق الحق بالحق وأن نحارب به الكلمة .
نريد أن نعرف إذا كان الحق قويا أم ضعيفا ونحن حوله ؟ لا نستعمل
السلاح إلا يوم يحاول رفعت أن يستعمل السلاح على أشخاصنا ،
نحن الذين نقول عن أنفسنا حماة الحق . ونحن لا نحارب رفعت وحده .
وإنما نحارب جمهورا حوله .

— فكيف تكون خطتنا بعد ذلك ؟

— إننا كثرة ولنا عيون .

— نعم لا شك في ذلك .

— نريد أن نعرف تحركات رفعت جميعا ما وقع منها وما نتوقع أن
يفعل .

— ممكن هذا .

— ونجتمع في كل مرة نعرف أنه سيفعل شيئا ونبحث كيف
نواجه ما ينتويه .

— على بركة الله . كلام منطقي ، ومعقول ..

وعرف رفعت أن اجتماعا كبيرا تم في مكتب منصور ولكنه لم يدر
عما دار فيه شيئا مطلقا ، فأفراد الجمعية بعيدون كل البعد عن النفع
الشخصي وعن الجبن فلا طريق له بينهم أبدا .

كان منصور جالسا في مكتبه حين دخل إليه راضى .

— رفعت الربيعى بالخارج .

— هل عندك موكلون ؟

— واحد .

— أدخل الموكل قبله .

— أفعل .

وفهم رفعت الإشارة ولم يحاول أن يقوم بأى احتجاج .

وحين مثل رفعت أمام منصور وقف منصور وصافحه .

— أهلا وسهلا .. تفضل .

— أهلا بك يا أستاذ منصور ، أنا أنخى صديق لجدك ، وكنت

أعرف المرحوم والدك ، كما أعرف عم أبيك عبد الوارث .. ولم يكن

بيننا أى عدا ، فما هذا الهجوم ؟

— إن جدى وأبى وعم أبى لا شأن لهم بالذى بيننا إطلاقا ، إن

كان بيننا شىء .

— كل هذا وليس بيننا شىء !

— ما هو كل هذا ؟

— قبولك لقضايا سامية .

— أما كلام عجيب يا سيد رفعت ! إذا لم يقبل مكتب محاماة

— ٧٢ —

قضايا من الموكلين فماذا يصنع ؟

— أنت تعرف أن القضايا جميعها ضدى .

— هذا عليك وليس لك . كان الأولى بك وأنت كبير عائلة

الربعى أن ترعى حق فتاة ليس لها رجل يحميها .

— وهل ترعى أنت حقها أكثر منى ؟

— أنت لا ترعى حقها ، أنت تريد أن تحرمها حقها حتى فى

الحياة .

— وأنت الذى ستمنعنى .

— نعم إن شاء الله .

— أتظن ذلك ؟!

— لا أظن ولكنى واثق .

— بأى قوة لك ؟

— بقوة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وزلزلت الشهاداتان رفعت ولكنه تماسك وقال :

— بالخطب .

— اترك الأيام لتشهدك ماذا يستطيع الحق سبحانه وتعالى أن

يفعل .

— طيب ، وما لزوم أن أرسل إليك رجلى فتشتمنى أمامه ؟

— قد كنت أولى أن أعاتبك على هذا . كيف سمحت لنفسك أن ترسل في استدعائي ؟ من أعطاك هذا الحق ؟
 أموظف أنا عندك ، أم أنا واحد من المجرمين الذين تستخدمهم .
 وقاطعه رفعت .
 — مجرمين .

ومضى منصور في حديثه وكأنه لم يسمع شيئا ..
 — أم خادم أنا في بيتك ؟ كيف أبحت لنفسك أن تستدعيني ؟
 ومع ذلك فأنا لم أشتك للمجرم حامل البندقية الذى أرسلته . كل ما فعلته إننى رويت ما يقوله الناس عنك . وألسنه الخلق أقلام الحق .
 — أنت تعرف أن الناس تحببني .
 — أعرف أن بعض الناس ينتفع منك ، وأعرف أن كل الناس ترهب المجرمين الذين حولك .
 — يبدو أن التفاهم بيننا مستحيل .
 — ومتى كان هناك تفاهم بين حق وباطل ، أو بين سلام وطغيان .

— السلام عليكم .
 — وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .
 حين وجد رفعت أن المواجهة مع منصور غير مجدية استدار من

— ٧٤ —

طريق آخر . طلب التليفون .

— عبد الوارث بك .

— نعم .

— أنا رفعت الريعى .

— أهلا وسهلا .

— أريد أن أراك .

— تشرف .

— ألا تشرفنى أنت وتشرب معى فنجان قهوة .

— أفضل أن تشرفنى أنت يا رفعت بك .

— وهو كذلك ، غدا فى الساعة مساء يوافقك ؟

— أهلا وسهلا .

* * *

— ألا ترى ماذا يصنع منصور ، ألا تكلمه ؟

— أنا لا أعرف أنه صنع شيئا أكلمه بشأنه .

— اسمع يا عبد الوارث أنت تعرف كيف يزلزل كيانى ما يصنعه

منصور .

— وماذا أقول له ؟

— فعلا لك حق .. ماذا تقول له ؟ .. أنا قادم إليك لأقول لك ماذا

تقول له .

— تفضل .

— أستطيع أن أعينه في النيابة أو القضاء في ظرف أسبوع ، ويترك

لنا المركز كما هو .

— أقول له .

— وأفهمه أن أغلبية الناس معي ، وإن كنت أضمن نفسي فأنا لا

أضمن واحدا من رجالى أو من الناس الذين يحبوننى .

— هذا تهديد أرفضه يا رفعت ، أنت تعرف من منصور ومن

أسرته .

— أنا أعرف ، ولكن ماذا نفعل مع الجهلاء الذين لا يعرفون ؟

— هذا كلام لا يليق بين أمثالنا يا رفعت . اترك لى فرصة الكلمة

عن العرض الذى تعرضه ، أما التهديد فهو موجه إلى وأنا أرفضه ،

وأنا قادر على تمزيق كل من يمس شعره فى رأس ابننا منصور .

— وهو كذلك .. متى أنتظر ردك على العرض ؟

— لن يتأخر .

* * *

— قاض ! ما هذا يا عمى ؟ من قال لك إننى أفكر فى أى وظيفة ؟

— يا منصور الرجل مجرم ، وأنا لا يهمنى أن تكون قاضيا أو لا

— ٧٦ —

تكون ، وإنما تهمنى سلامتك . المجرم هدد .

— هدد ؟ اسمع يا عمى ، إن عرض على رئاسة الوزارة لن أترك
المحاماة ، وإن اجتمع حولي المجرمون فى العالم أجمع لن أترك الحق والله
فعال لما يريد .

— توكل على الله ! والله لن يخذلك الله أبدا . توكل على الله ونحن
فداؤك .

* * *

٦

سامية فتاة في ريق العمر في الثالثة والعشرين من عمرها ، تركها أبوها منذ سنتين وكانت حريصة أن تتعلم ، ولكنها حين بلغت شهادة الثانوية كان أبوها قد مرض فاضطرت أن تترك التعليم وتلازمه ، فقد كانت أمها قد رحلت عنها وهي في العاشرة من عمرها .. وأبى أبوها أن يتزوج خشية أن تسيء الزوجة الجديدة إليها . وهكذا حملت سامية مسؤولية البيت وهي في عمر الأطفال ، وجمعت بين الدراسة وشئون المنزل بطريقة ساذجة أول الأمر ، ولكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى أصبحت خبيرة حاسمة تدير البيت وكأنها سيدة مكتملة . وقبل أن يمرض أبوها تقدم لخطبتها كثير من الأقارب وغير الأقارب ولكنها كانت ترفض الزواج حرصا على الدراسة . وحين مرض أبوها وبقيت في البيت لم يجرؤ أحد أن يتقدم لخطبتها وأبوها مريض . وحين مات أبوها لم يجرؤ أحد أن يتقدم لخطبتها خوفا من رفعت .

وقد كان والدها ذكيا ، فحين ماتت زوجته وعقد العزم

ألا يتزوج راح يشتري كل عقار جديد يشتريه باسم سامية مباشرة .
 وحين قاربت سن الرشد عقد بيعا صوريا بكل ما يملك للحاج مراد
 الأشرم الذى باعه هو إلى سامية حتى يغلق طريق الصورية على أقاربه
 وعلى رأسهم رفعت ، وتلك وهذه من مضحكات القانون . إنه
 يرغم الأشخاص على اللجوء إلى الصورية ليغلق على المحاول الطعن
 بالصورية .

فملكية سامية لعقاراتها من أراض وعمارات لا مجال فيه لشك .
 كان من الطبيعى أن تحس سامية بالفراغ بعد موت أبيها ، ولكن
 حرب رفعت لها ردت عنها هذا الشعور فقد كانت حربا شرسة
 لا تهدأ ، فلا يمر أسبوع إلا ويظالها بكيد جديد . وهى فى دوامة
 تحس بانفرادها فيها . وكان يملؤها حسرة انفضاض أهلها من حولها ،
 حتى لقد كانت السيدات يخشين زيارتها حتى لا يتعرضن أو يتعرض
 أزواجهن أو أبناءهن لشبهة غضب من رفعت الريعى ..

لم يقف معها فى هذه المحنة إلا مراد الأشرم ، وقد كان رجلا ذا
 ضمير ، وكان يشعر أن سامية فى مكان ابنته فقد كان يعمل مع أبيها
 قبل أن تولد ، بل وقبل أن يتزوج أبوها أيضا ..

كان منصور اتفق مع مراد أن يأتى إليهم بعد أن يدرس القضايا
 ويناقش ظروف كل قضية معه ومع الأنسة سامية ، فقد كان يرى أنها

يجب أن تعرف أمور القضايا جميعها فهي متعلمة ، ومن حقها
وواجبها معا أن تكون على علم بما يجرى في المحاكم باسمها ..
ضرب جرس التليفون في منزل سامية وقد كان منزلا جميلا
يتوسط حديقة صغيرة تعتنى بها سامية كل العناية ..

— آلو ... من ؟

— أنا منصور النقيب يا أفندم .

— أنا سامية يا أستاذ منصور . أهلا وسهلا .

— هل أستطيع أن أجيء اليوم في الساعة الثامنة بعد المكتب

لنناقش القضايا ؟

— طبعا ! أهلا وسهلا .

— الحاج مراد موجود ؟

— طبعا .

— وهو كذلك ، مع السلامة يا هانم ..

* * *

فتاة جذابة الروح تحسن الاستماع كل الإحسان . أسئلتها تدل على
ذكاء وقاد وفهم عميق لما يدور حولها . ملبسها غاية في الأناقة والبعد
عن البهرجة في وقت معا . لا تحاول أن تتظاهر بما ليس فيها ، واثقة أن
فطرتها نقية ليس بها ما يدعوها إلى إخفائه . بللورية الضمير لا تحمل

حتى لرفعت سخيمة أو كرها . نورانية الطلعة لا يجزؤ من يراها إلا أن يعاملها بأقصى ما يطبق وما لا يطبق من الاحترام . تختار ألفاظها في طبيعة موالية ، واثقة أنها لن تقول إلا ما ينبغي له أن يقال .

* * *

في الساعة الحادية عشرة من نفس الليلة كان منصور يطرق بيت عم أبيه عبد الوارث ..

— وقعت في نفسى أكرم موقع .

— لم نسمع عنها إلا كل خير .

— إذن عجل بخطبتا .

— للأسف ليس لها رجال أكلهم . لم يعد أمامي إلا أن أكلها

هى .

— فى حضور الحاج مراد فهو فى منزلة أبيها ، وتحسن صنعا

لو وجهت الكلام إليه فإن هذا سيرضيه ويرضيها فى وقت معا .

* * *

— آلو ... منزل المرحوم نشأت بك ؟

— نعم يا أفندم .

— الحاج مراد موجود .

— موجود يا أفندم . من يريدہ ؟

— ٨١ —

- عبد الوارث النقيب .
ومع نبضه دهشه وفرح أجابت سامية :
— دقيقة واحدة من فضلك .
جاء الحاج مراد إلى التليفون .
— أنا عبد الوارث النقيب يا حاج مراد .
— يا مرحبا يا سعادة البك ، يا أهلا وسهلا .
— أريد أن أزور سامية هائم ، وأريدك أن تكون حاضرا الزيارة .
— وما له يا سعادة البك تشرف . دقيقة واحدة أسأها .
وبعد لحظة أو أقل .
— متى تريد التشریف يا عبد الوارث بك ؟
— أمرك .
— أى وقت ؟
— غدا بعد المغرب معقول ؟
— أهلا وسهلا .
— سلام عليكم .
— سلام عليكم .

* * *

— يا حاج مراد أنت في مكان والد سامية ، أطال الله عمرها

وعمرک .

— أعمل مع المرحوم نشأت بك قبل أن تولد ، وقبل أن يتزوج هو أيضا .

— أنا واثق أن سامية عرفت ما أنا قادم من أجله ، فهل عرفته أنت أيضا ؟

— عبد الوارث بك تفضل بالحديث .

كانت سامية جالسة شبه غائبة ، فقد كانت تعرف عن منصور كل شيء . وحين رآته لأول مرة ورأت عظمته في خلقه وأدبه وفهمه ازدادت به إعجابا ، ولم تكن تتصور أن تجرى الأمور إلى غايتها في هذه السرعة . قال عبد الوارث في حسم :

— نريد ابنتنا سامية لابنتنا منصور . طبعاً لن تسألوا عنا ولن نسأل عنكم فكلنا في المركز نعرف كل خافية عن أبناء المركز ، ولم يبق إلا أن تسأل الآنسة الفاضلة وتجيّب ندائى .. أمر عليكم غدا في مثل موعد اليوم . السلام عليكم .

ألقى الكلام في فرحة وفي إقبال وانشراح صدر ، ولم يسمح لأى حرج أن يشوب الجلسة .

تزوج منصور من سامية ، والعجيب أن كل أقاربها حضروا

الفرح وقد شعروا أن منصور أصبح اليوم سنداً للحق في المركز كله ،
وجميعهم أصحاب حقوق عند رفعت .

الوحيد الذي لم يحضر هو رفعت فإنه من الغيظ في حال قاتلة ،
حتى ما استطاع أن يتظاهر بالفرح الذي تعود الناس أن يتظاهروا به
في مثل هذه المناسبات .

وبلغت به الوقاحة أنه أرسل خطاباً مع أحد أتباعه إلى مكتب
منصور يخبره فيه أنه يعتذر عن عدم حضور الفرح لأنه كان يجب أن
يخطب منصور سامية منه هو . ومفاجأة أخرى جاءت في الفرح ..
لقد حضر المأمور الفرح دون أن يوجه إليه منصور الدعوة لأنه لم يكن
يعرفه .. وأحضر معه باقة كبيرة من الورود عليها اسمه مجرداً غير
ملحق بوظيفته . فقط فائق الدروى بلا مأمور مركز بعدها .
ورحب منصور به مقدراً مجيئه بغير دعوة ، ووضع المأمور ذراعه في
ذراع منصور وانتحى به ناحية منزلة من الفرح وقال له :

— أنت اليوم أمل لأمة بأكملها وليس لمركز واحد . إن التجربة
التي ترودها من وقوف الحق أمام جموع الباطل ينظر إليها الناس في
كل مكان ، وربما نظر إليها العالم أجمع حين يعلم بأمرها .

— ٨٤ —

— سر قوتي لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .
— أو قليل هذا ؟ .. إني معك بقلبي ووظيفتي ، وإن فقدت حياتي
من أجل هذه الكلمة أكون سعيدا راضيا . إذا كان لا بد أن تموت
فلنمت ونحن نقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ..

* * *

٧

قصد أشرف الماوردى إلى مكتب منصور فى ظلمة الليل
الحالكة . وانتظر حتى انصرف الموكلون جميعا وانفرد بمنصور
وأمين .

— علمت اليوم أن رفعت ينوى أن يقوم بهجوم كاسح يسترد به
ما فقده من هبة .

— وفيم يتمثل هذا الهجوم ؟

— إنه ينوى أن يحرق أقطان السيدة زوجتك فى العزبة وأقطانك
أنت أيضا فى يوم واحد .
وقال أمين :

— تصرف غبى ، فهو بهذا لا يستطيع أن يدعى أن الحريق فى
المكانين المتباعدين غير متعمد .

وقال منصور :

— ومن قال لك إنه يريد الحريق أن يبدو غير متعمد . إنما يقصد
قصدا أن يعرف الناس جميعا أنه حريق متعمد وأنه هو الذى أمر به

— ٨٦ —

ودبر له ، وفي نفس الوقت لا يستطيع أحد أن يثبت عليه شيئاً .
وقال أمين لأشرف :

— من أخبرك ؟

— عبد الله أبو سرور أحد رجاله وكان يعمل عندنا مزارعاً ، وقد
استطعت أن أسلخه منهم وأبقية عينا لنا معهم .

وقال منصور :

— هل عرفت الموعد ؟

— نعم ، يوم الخميس مساء ليكون الجميع في بيوتهم يسهرون
حول التلفزيون .

— اليوم الاثنين .

— نعم .

— إذن عندنا وقت .

وسأل أمين :

— وقت لماذا ؟

— القطن الآن عندي وعند زوجتي في أكياس . سأنقله مساء في
باحة المنزل عندي . وفي مخزن آخر عند زوجتي . وفي نفس الوقت
سنملاً أكياساً بفرزة القطن وبأعواد الهندي ونضعها مكان الحريق .
وأريد منك يا أمين أنت وأشرف أن تقسموا أعضاء الجمعية بين بيتي

وبيت زوجتي ويستخفوا من بعد صلاة المغرب ، بحيث لا يشعر بهم أحد حتى ولا أهل المنزل أو عند زوجتي ، والباقي اتركوه على الله وعلى .

— وما الباقي ؟

— سترون الآن .

ورفع سماعة التليفون وطلب رقما :

— آلو .. فائق بك .

— أنا منصور ، يشاء الله سبحانه وتعالى أن تنفذ وعدك الذى

وعدت فى أول لقاء لنا .

وجاءه صوت المأمور :

— ما أسعدنى بذلك .

— الأمر من اختصاصك وحدك .

— ماذا ؟

— رفعت أصدر أوامره لرجاله أن يحرقوا القطن عندى وعند

زوجتى يوم الخميس القادم .

— أهذا معقول ؟

— يريد أن يعرف الناس قوته وجبروته ، وفى نفس الوقت

لا دليل .

— معقول .

— المهم أن هذا العمل الواسع سيحتاج إلى كل رجاله ، ولن تجد فرصة خيرا من هذا لتقبض عليهم متلبسين .

— وهل تتركهم يحرقون القطن ؟

— إن جريمة الإحراق تقع بمجرد القيام بها ، أما الشيء المحروق فليكن ما يكون . وسيادتك تعرف القصد الاحتمالى وما قد يترتب على هذا الحريق من انتشار النار فى البلدة جميعا .

— تصرف فى غاية الذكاء .. توكل على الله .

— وهل لنا غيره ؟

* * *

رأى أصدقاء منصور المختبئين فى تربص رجال رفعت وهم يتقاطرون واحدا فى إثر آخر قدر جهدهم ألا يلفتوا إليهم الأنظار ، وهم لا يدرون أن وراء كل شجرة أو ثنية بيت رجل شرطة أو واحدا من أصدقاء منصور . وكان المأمور نفسه بسيارته الخاصة داخل حديقة البرتقال الواقعة بجانب مخزن سامية . وكان نائب المأمور متربصا هو الآخر قريبا من بيت منصور . كان جميع رجال الشرطة وأصدقاء منصور يعلمون أن الموعد هو الخميس ولكن لم يعرفوا فى أى ساعة وقت لهم رفعت القيام بمهمتهم .

هوم صمت متوقع على الجميع ، وكان الجميع مجرمين وشرفاء
يحبسون أنفاسهم أن يعلو لها صوت . وتجد كل في مكانه فكأنه
قطعة من شجر أو حجر من بناء . وارتفع صوت المؤذن يشق الليل
والصمت والتربص : الله أكبر الله أكبر ! وفي نفس اللحظة نبت
المجرمون من مكائهم .. وتكوفوا حول المخزنين بعض منهم هنا عند
منصور في بيته ، وبعض منهم هناك عند سامية في عزبتها . وانتظر
رجال الشرطة وأصدقاء منصور جميعا حتى أشعل المجرمون النيران
هناك وهنا ثم خرجوا إليهم من حيث لا يحتسبون ، وقبضوا عليهم
جميعا متلبسين ، الشرطة تؤدي واجبها وأعضاء جمعية الحق شهود .
وظهرت سيارات الشرطة . بعد قليل ونقلت المجرمين إلى المركز ،
وبدأ التحقيق .

كانوا كما توقع منصور هم كل عصابة رفعت لم يتخلف منهم
إلا عبد الله أبو سرور الذي أعلن خروجه على رفعت صائحا في
وجهه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

* * *

كانت ضربة حاسمة لرفعت حتى لقد راح أصدقاؤه ومن كان
يصطنعهم يسخرون منه وينقلبون عليه جماعات ووحدانا ، فدارت
به الأرض فقد رأى ما بناه في عشرات السنين يهوى أنقاضا ، وسارع

إلى صدقي البحر اوى المحامى ليحضر مع المتهمين ويرافع عنهم . وكان ذلك عجباً فقد كان صدقي بعد ثورته التى أعلن عنها فى بيت الهنيدى .

— ألم أعد إليك قضاياك جميعاً يا رفعت بك ؟

— وغضبت منك غضباً شديداً .

— غضبك كان فى حسابى وأنا أرسل القضايا .

— ظننت أن الأتعاب كانت قليلة ، وها قد جئت لأضاعفها .

— أنت ظننت ذلك يا رفعت بك .

— أنا لم أغضبك فى شيء ، فكان عجبياً أن ترسل إلى القضايا

بلا تعليق .

— ألم يدر بذهنك أن إنساناً ما تأتى عليه لحظة يحاول فيها أن يتطهر

ويقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

— فجأة ؟

— أترى أنت أنها فجأة ؟ يا ليتها كانت فجأة إذن لحمدت لنفسى

أننى رجعت إلى الله من تلقاء نفسى ، ولم يهزنى شاب صغير كنت أنا

أولى أن أسبقه فى الرجولة والشجاعة ، وفى صيحة الحق .

— ما فات فات .. نحن الآن فيما نحن فيه .

— وما الذى نحن فيه ؟

— ٩١ —

— نحن إزاء قضية جمعت الشرطة فيها كل رجالى .

— أنعم بالحكومة وأكرم !

— هل أفهم من هذا أنك ترفض ما جئت لك من أجله ؟

— أكاد أعرف ما جئت من أجله ، ولكن لا أتصوره .

— لماذا لا تتصوره ؟

— محام أرسل إليك قضاياك القديمة ، فكيف يقبل قضايا منك

جديدة ؟

أليست تلك عجيبة من عجائب الدنيا ؟

— الأمر مختلف .

— فيم الاختلاف ؟

— هذه ليست قضايا خاصة بى ، إنها قضايا أفراد شتى .

ثم إنها قضايا جنائية وليست مدنية مثل التى كانت عندك .

— رفعت بك ، أرجو ألا يكون ما حدث قد أثر على ذكائك .

كيف تقول إنها قضايا أفراد ، إنها جميعا قضيتك أنت ، والغالب أن

يذكر واحد من هؤلاء اسمك كمجرم .

— يستحيل .

— أنت الآن فى موقف لا يسمح بالتأكد من أى شىء أو أى

شخص . هؤلاء مجرمون والقضية جنائية . ألا يحاول كل منهم أن

يتشبث بأى شىء .

— بل كل واحد منهم يعلم أنه إذا دخل السجن فلا ظهر له إلا أنا
حتى يجد بيته ما يعيش منه .

— ومع ذلك ليس لك أن تتأكد من شىء .

— فما قولك أنت ؟

— فيم ؟

— هل ترفض هذا القضايا ؟

— لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

— يعنى يذهب كل هؤلاء إلى السجن ؟

— ولكم فى القصاص حياة .

— وبعد ماذا أفعل ؟

— مكاتب المحامين فى كل شارع .

— فى المركز أنا لا أثق إلا بك .

— أنا لن أترافع عنك أبدا يا رفعت بك .

راح رفعت يكلم نفسه ..

— ماذا أعمل .. ماذا أعمل ؟ .. ألجأ لمحامين من القاهرة ؟

— هذا يكون أحسن . لأنك ستواجه قضايا أخرى يا رفعت

بك .

— ٩٣ —

— ماذا ؟

— مظالمك كثيرون . وما كان يخيفهم بالأمس من رجالك
وسلاحك زال . أمحي من الوجود . فتوقع قضايا جديدة مدنية
وجنائية من كل نوع .
— أتهديد هذا ؟

— يا رفعت بك لا تفقد ثباتك فإنك لم يبق لك غيره . الجماهير
انفضت عنك ورجالك فى السجون ، لم يبق لك إلا ثباتك فحذار
أن تفقده ، هذه نصيحة لوجه الله . كيف أهددك أنا ؟ هل
ظلمتنى ؟ إننى فقط أتوقع بتفكير حر ليس فيه مصالح شخصية .
واستخزى رفعت وأطرق ، ودون سلام جمع نفسه المبعثرة
وقام إلى الباب وخرج وصدقى يشيعه ، وصيحة تملأ نفسه : لا إله
إلا الله ، محمد رسول الله ..

٨

حَفْنَى سلام سائق سيارة اشتراها بعد جهد جهيد طوال سنوات عشر ، كان يوفر من ضرورات الحياة حتى يحصل على ثمنها . وقد اشتراها قديمة توشك أن تكون مستهلكة فقام بإصلاح آلتها وتجميل خارجها بكل ما يطبق من جهد وخبرة ، واستخرج رخصة تتيح له أن يجعل السيارة على الخط .. وهو تعبير يعرفه سكان المراكز ، ويعنى أن السيارة تعمل بين مصر والمركز بشكل منتظم . واستخراج هذه الرخصة يحتاج إلى مجهود كبير آخر مع الجهات الرسمية ومع زملائه على الخط حتى لا يعدوا عليهم ولا يعدوا عليه . وبدأ حَفْنَى عمله على الخط وهو مثقل بالديون ، فكان يعمل ليل نهار ليسدد ما عليه من ديون وليتبقى له ما يقيم أوده وزوجته وردة وبناته الأربع وابنه الذى جاء بعد البنات ، فاعتبره أعظم ما وهبته له السماء وأسماء محروس داعيا الله بالاسم الذى اختاره أن يحرسه . ومرت سنوات خمس ، وبدأ محروس يذهب إلى المدرسة ، ولكن شاء الله أن يمتحن عبده حَفْنَى فأصيب محروس بالمصران الأعور ، وكان

— ٩٥ —

لا بد أن تم له العملية بين يوم وليلة .

وجن جنون حفى وراح يجرى هنا وهناك . ولكن من أين لأصدقاء حفى أن يعينوه بالرقم الذى تحتاجه العملية وكان قريبا من خمسمائة جنيه . وفى لحظة الجنون التى تمر والأب يخشى على ابنه الموت المحقق اتجه إلى رفعت الربيعى .

— أنت تعرفنى العمر كله ، وطالما كنت تحت أمرك .
— هذا كلام لا ينفع الآن ، كيف أضمن المبلغ إذا أنا أعطيته لك ؟

— خذ كل الضمانات التى ترضيك . أكتب لك وصل إمانة .

— وماذا أفيد أنا من حبسك إذا لم تدفع ؟

— فماذا تريد ؟

— تباع لى السيارة .

— يا نهار أسود ... وكيف أعيش ؟

— بيع صورى .

— أمرك .. ولكن معنى البيع الصورى أن تكتب لى ورقة تذكر

فيها أن البيع صورى .

— هل أنت عبيط ؟!

— فكيف يكون البيع صوريا إذن ؟

— ٩٦ —

— يكون كذلك بينى وبينك .

— وإذا استوليت سعادتك على السيارة ؟

— واحدة من اثنين ، إما أن تثق فى ذمتى أو لا تثق .

وارتج على حفى وأصبح فى موقف لا خيار فيه ، إن قال له لا أثق فى ذمتك فقد الأمل فى السلفة وربما فقد حياته هو أيضا بعد ذلك ، وإن قال أثق فمعنى ذلك أنه باع نفسه جميعا إلى ذلك الرجل المتوحش وأصبح لا يملك من أمر نفسه شيئا .. قضاء أخف من قضاء .. أبيع نفسى خير من أن أفقد ابنى وحياتى ..

— يا سلام يا سعادة البيه ! وهل يستطيع مثلى ألا يثق فى مثلك ؟
وبكتب الأوراق وأخذ المبلغ وأجريت العملية لمحروس ونجحت ، وأفاق حفى إلى الكارثة التى حلت به .

لم تمر أيام حتى وجد عند وردة طلبا من رفعت أن يذهب إليه فى باكر الصباح . ومعنى هذا أن يخسر دورا من أدواره فى الخط فاحتسب دوره عند الله وذهب إلى رفعت .

— اسمع يا عم حفى ، سيارتك تلزمنى فى توصيلة .

— أنت تأمر يا رفعت بك .. هل ستركب أنت سيارتى المسكينة

هذه ؟

— لا .. أنا عندى سيارتى .. هذه توصيلة إلى القاهرة سيكون

— ٩٧ —

معك فيها عثمان أبو سعيد .

— أمرك .

— كم تأخذ في التوصيلة ؟

— ثلاثة جنيهات من النفر ، يعنى خمسة عشر جنيها .

— أنا سأعطيك خمسين جنيها .

— ماذا ؟

— ما سمعت .

— لماذا ؟؟

— أنا حر يا أخى ، أتصرف فى مالى كيف أشاء .

— هيه !

وفهم حفى الوضع تماما ، فقد كان يسمع أن عثمان من الذين يعملون فى تهريب المخدرات لرفعت بك ، والآن تحقق له ما سمع ولكنه اضطر أن يتظاهر بأنه لم يفهم .

وقد كانت كل خشيته أن يتكرر هذا الأمر وهو لا يريد أن تسوء سمعته عند رجال المرور . فإنهم يعرفونه ، وما يعرفونه عنه يجعله نظيفا عندهم حسن السمعة .

خطر له خاطر .

— رفعت بك .

(خشوع)

- هيه .. ماذا ؟
- أليس عندك شخص آخر غير عثمان أبو سعيد .
- وعثمان ما له ؟
- رجال المرور لا يحبونه ، وسيارتى أول مرة تقوم بهذه العملية .
- ما هى العملية ؟
- التى يقوم بها عثمان .
- فضحك رفعت ملء شذقيه وهو يقول :
- البلد هذا لا يستخفى فيه شيء .. وهو كذلك ! سأعطيك فى كل مرة شخصا جديدا .
- أمرى إلى الله .
- وقام حفىنى بعملية نقل المخدرات عدة مرات وهو لاقف الأنفاس يملاً الرعب جانبيه ، واثقا أنه لو امتنع فإن رفعت سيغتصب منه السيارة وستقتل أمامه كل سبل الحياة .
- كان أحيانا يذهب إلى القاهرة بريثا ويعود حاملا تهمة معه ، وأحيانا يخرج من المركز وبلواه فى السيارة .
- وفى مرة أعقبت القبض على رجال رفعت ، فوجىء برجال المرور يوقفون سيارته ويجرون بها تفتيشا دقيقا ، ولحسن حظهم كانت السيارة بريثة من المخدرات وكان معه فيها توفيق عبد الباقي .

وقد تولى الرجلين دعر من التفتيش رغم أنهما كانا يعلمان أن ليس بالسيارة ما يدعو إلى الخوف .

وانتهى التفتيش وأكمل حفنى طريقه إلى القاهرة وظل صامتا طوال الطريق . وكلما حاول توفيق أن يحادثه أبى أن يرد عليه وكأنه غير موجود ، وكان فى صمته يقرأ ما حفظه من آيات القرآن يرددها لنفسه محاولا بكل الجهد أن يستعيد بها إلى نفسه بعض الطمأنينة ، حتى إذا بلغت السيارة مشارف القاهرة قال توفيق :

— نذهب إلى العنوان الذى معنا .

وانفجرت ثورة حفنى :

— هل جنت ؟ وحق كتاب الله المنزل لن يراى الله أحمل هذه

المصائب مرة أخرى أبدا .

— ورفعت بك ؟

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .. الموت

أحسن من السجن .

— وماذا أنت فاعل الآن ؟

— سترى .

وراح حفنى يدور فى شوارع القاهرة وتوفيق لا يدرى مصيره ،

حتى بلغت السيارة مقام السيدة نفيسة ونزل حفنى دون أن يدعو

توفيق للنزول معه . ودخل إلى المسجد وتوضأ وراح يصلي أمام المقام والدموع في عينيه ، حتى إذا بلغت نفسه بعض الهدوء قام إلى سيارته ولحق به توفيق وذهب إلى سيدنا الحسين وراح يصلي ، حتى إذا اكتفى قام إلى سيارته ولحق به توفيق ذاهلاً وذهب إلى مقام السيدة زينب وراح يصلي أمام المقام والدموع ما تزال تتوالى من عينيه وراح لونه يسترد بعضاً من طبيعته . ثم قام إلى السيارة وركب هو وتوفيق فلم يقف إلا عند رفعت .

— رفعت بك .

— خير .

— أنت أخذت منى هذه السيارة بعقد لا حق لك فيه . أنا لا أريدها ولن أعمل معك بعد اليوم أبداً .

— هل جننت يا ولد ؟

— أنا لن أناقش ، هذا عهد قطعته بيني وبين الله وأشهدت عليه سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة . ومفاتيح السيارة فيها والسلام عليكم ورحمة الله .

واستدار واتجه إلى الخروج ، وراح رفعت يناديه فلم يلتفت إليه . وكان رفعت جالسا مع وجدى المهن أحد كبار مساعديه ، وقال وجدى :

— ١٠١ —

— ماذا سنفعل الآن ؟

— ما الذى حصل ؟

— لا يهم ، الذى حصل سنعرفه من توفيق ، إنما ماذا تنوى أن
تفعل ؟

— نرسل السيارة فوراً لتأتى بالبضاعة ، المحامى الذى أتيت به من
القاهرة يحتاج إلى مبالغ كبيرة .

— نرسل سيارة أخرى .

— بل هذه .

— كيف ؟

— أولاً هذه عند المرور ليست سيارتى ، وثانياً لن يفتش المرور
سيارة واحدة مرتين فى اليوم .

— والله معقول .

— من هنا من السائقين ؟

— صابر الملوانى .

— أرسل إليه .

* * *

خرج حفى من بيت رفعت إلى منصور وقص عليه القصة
جميعاً . واستوعبها منصور كل الاستيعاب . ودون مقدمات

— قم بنا .

— إلى أين ؟

— إلى المركز .

— لماذا ؟

— أنت في موقف في غاية الحرج ، فلا بد من كتابة محضر بكل هذا الذي قلته الآن .

— إذا فعلت أكون قد ضمنت الآخرة .. سيقتلني رفعت حتما .

— أنت واهم . أولا .. رجال رفعت كلهم في السجن . ثانيا هو الآن سيرسل سيارتك إن لم يكن أرسلها فعلا لتأتى بالمخدرات معتمدا أنه سيقول إذا سئل إنها سيارتك وليست سيارته . فإن لم تسبق أنت بعمل محضر فالتهمة ستكون ضدك وضد سيارتك .

— ولكنه اشتراها .

— هل معك عقد البيع ؟

— كتبه من صورة واحدة .

— هذه الصورة لن يظهرها .. هيا لا تضع الوقت .

— هيا .. أنا تحت أمرك .

وذهبا إلى المأمور مباشرة ، وخرجت قوة إلى بيت رفعت ولحق بها المأمور ومعه إذن نيابة بالتفتيش عن المخدرات . وفوجئ رفعت

بالقوة التى لم تكد تلتف حوله حتى وجد المأمور معها ، وبدأ
التفتيش وأمر المأمور بفتح الخزانة ولم يكن عجباً أن وجد المأمور عقد
شراء سيارة حفى بين أوراق الخزانة .. وإن كان لم يجد مخدرات .
وكانت السيارة قد ذهبت فعلاً إلى القاهرة ، وما كان أيسر على
المأمور أن يعطى أمراً بتفتيشها عند عودتها وتم العثور بها على
المخدرات .

وقال رفعت للنيابة :

— هذه سيارة حفى .

— وعقد الشراء ؟

— لقد كتبه لأضمن الدين الذى استلفه منى حين كان ابنه
محتاجاً لعملية ، ولكن الجميع يعلم أنه كان يستعمل السيارة على
الخط ، فلو كنت اشتريتها لما كان ركبها .

— ولكنه كان يعمل عندك أيضاً . وهى الآن حين ضبطت

بالمخدرات لم تكن معه . ما أقوالك ؟

— أنا لا أعرف شيئاً عن المخدرات ، ربما يكون صابر هو الذى قام

بالعملية من تلقاء نفسه .

— ألا يعمل صابر سائقاً عندك ؟

صمت .

— ١٠٤ —

— أجب .

— يعمل عندي أحيانا ولكنني لم أكلفه بهذه المهمة .
وبعد استكمال التحقيق أفرج عن رفعت بكفالة قدرها ألف
جنيه ، وأودع صابر السجن لاستكمال التحقيق .

٩

كان منصور في مكتبه حين دخل إليه راضى يستأذن في دخول
لطفى عامر .

— من لطفى عامر ؟

— أحد رجال رفعت .

— ماذا كان يعمل عنده ؟

— خادما بالبيت

— وماذا يريد ؟

— أناديه لك .

— دعه يدخل .

— أمرك .

ودخل لطفى عامر .. شاب طيب السمات ذكى النظرة تغشى
وجهه كآبة وهلع ، قال وهو يجلس .

— الحقنى يا سعادة البك :

— خير يا لطفى ؟

— أنا أعمل خادما عند رفعت بك منذ عشر سنوات ، وأنت تعرف أننا في العمل عنده لسنا أحرارا فأبى مزارع عنده ، وقد رآنى وكان عمرى ست عشرة سنة وماشى فى السابعة عشرة وقال لأبى : أريد لطفى أن يعمل عندى . وكانت الكلمة العابرة كافية للتنفيذ .

جمعت ملابسى وذهبت معه إلى المركز ، له عمارة بشارع الشنوائى بها دور تحت الأرض كله حجرات والدور له منافعه . أعطانى حجرة من هذه الحجرات وكتب معى عقدا جعل أبى يوقع عليه ، لأبى لم أكن قد بلغت السن القانونية بعد . ووقع أبى ورأيت المر يا منصور بك .. سهر إلى وش الصبح وتعب .. المرتب عشرة جنيهات آخذها شهرا ولا آخذها شهرا آخر ، وكلما فاتحته يقول: ألا يكفيك أنك تسكن فى حجرة ولا تدفع أجرا . أتعرف كم إيجار هذه الحجرة ؟ المهم تزوجت يا منصور بك بعد خمس سنوات وأتيت بزوجتى إلى الغرفة وأنجبنا ابنا وابنة .. الولد لا بد أن يذهب إلى المدرسة ، فإذا به يقول : مدرسة ! ألم يبق إلا ابنتك ليذهب إلى المدرسة ؟ .. أوجعتنى الكلمة يا منصور بك .. أكثر أن أعلم ابنى مثل خلق الله ؟ وكان الولد واقفا بجانبى وتمنيت لو أن الأرض ابتلعتنى .. فكل أب يا منصور بك يحب أن يكون محترما أمام ابنه . ولم يكتف رفعت بهذا بل أكمل : اذهب علمه صنعة أو انتظر عليه

— ١٠٧ —

حتى يكبر وهاته هنا يخدم وأنا أقبله وأمرى لله .

— ما الذى جعلك تخبره عن مدرسة ابنك ؟

— أردت سلفة عشرين جنيتها أحضر للولد ملابس يذهب بها إلى المدرسة .

— هيه .. وبعد ؟

— سكت .. أنا كنت حزينا كل الحزن . لقد تحملت منه الضرب والإهانة والسهر وعدم النوم فى الليل أو فى النهار ، وكأنى آلة ولست آدميا مثل كل الناس ، وبعد هذا كله يهيننى هذه الإهانة أمام ابنى .

— ماذا فعلت ؟

— روحت ولم أستطع حتى تناول الغداء ، إنما أرسلت زوجتى إلى زوجته تخبرها أننا لن نعمل عندها بعد ذلك .
— وماذا قالت لها ؟

— قالت : الآن طبعاً .. ما داموا قبضوا على رجاله . طيب أدخلوا الحجرة . قالت لها وهية امرأتى : أى حجرة ؟ قالت لها : الحجرة التى تنامون فيها . قالت وهية : ولكننا ندفع إيجارها . أكنا نقبل عشرة جنيهات مرتباً لو لم يكن الإيجار محسوباً .. قالت الست : هل معكم إيصال ؟ قالت وهية : طبعاً لا . قالت الست : ولكن نحن

لدينا عقد إيجار .. اشربوا من البحر إذن أو عضوا في الأرض .

— وماذا قالت وهيبة ؟

— وماذا يمكن أن تقول ؟ قالت : كتر خيرك يا ست هانم ، هذه
آخرة خدمتنا السنوات الطوال . ولم تسكت وإنما لعنت أباهها وهي
تقول : أكنتم تعملون بجانا ، امشي اخرجي من بيتي ..
قال منصور :

— والآن ماذا حدث ؟

— حدث أننى أصبحت أمدح فيك في كل مكان وصحت
معك : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وعرف هو هذا ،
وفوجئت يا سعادة البك بهذا الإعلان قادما .

— ما هذا ؟ .. إعلان طرد .. مبلغ كم ؟ ألف ومائتى جنيه قيمة إيجار
متأخر .. هيه .

— ما رأيك يا سعادة البيك ؟

— رأى أنه يملك أن يطردك .

— ومعى أربعة آخرون تركوا خدمته ويسكنون معى في
البدروم . وجاءت لهم إعلانات مثل هذه .

— أكلها بمبالغ كبيرة مثل هذه ؟

— المبالغ تتراوح .

— ١٠٩ —

— توكل على الله .

— هل له حق في هذه المطالبة ؟

— من جهة له حق فلا شك في ذلك .

— إذن ؟

— هات زملاءك وتعالوا إلى مكتبي اليوم بعد الظهر .

— جميعا .

— جميعا ومعكم الإعلانات .

وجاءوا وكان في انتظارهم منصور وأمين عبد الصادق . وجمع منصور الإعلانات فوجد المبالغ المطلوبة ثلاثة آلاف وأربعمائة جنيه ، فدق الجرس وجاء راضى .

فقال له في هدوء :

— خذ هذه الإعلانات وهذا المبلغ ثلاثة آلاف وأربعمائة جنيه تدفعه غدا في المحكمة إيداع لحساب رفعت بموجب هذه الإعلانات .

— أمرك .

— مع السلامة .

ثم نظر إلى زملاء لطفى وقال لهم : هذه المبالغ منى ومن الأستاذ أمين هدية لكم ، وعليكم بعد ذلك أن تدفعوا الإيجار .

— ١١٠ —

— ماذا نقول لك أو للأستاذ أمين ؟

— تعرفون جميعا ماذا تقولون .

— لقد رأينا العذاب ألوانا .. ماذا نقول لك ؟

— ما نقوله جميعا .

— لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

١٠

أكرم الأشموني شاب في مقتبل العمر يملك عشرة أفدنة في الناحية غير بيت كامل في المركز . مات عنه أبوه وهو في السنة الثالثة من كلية التجارة فأكمل تعليمه وتخرج . وكان وهو في الكلية معجبا بزميلة له نهي سعدون . وكان طوال سنوات الدراسة يحاول أن يتقرب منها هذا التقرب المعهود بين أبناء الجامعة .. كراسة المحاضرات .. المذاكرة .. الإعادة على المحاضرة .. إلى غير هذا . وكانت تتقبل منه هذه المحاولات في نفس راضية ، فقد كان مرتب العقل لا يرتكب الصغائر التي يرتكبها الشباب في هذه السن من التظاهر بما ليس فيهم ، أو ادعاء ما ليس لهم . وكان منتصب القامة في غير تكبر ، يحترم نفسه في غير تعاضم . وكانت تشهد منه إذا لم تعطه كل اهتمامها كبرياء الأصيل ، حتى لتضطرب أن تعتذر إليه مدركة ما وقعت فيه من خطأ . وكان أكرم ونهى ينجحان كل عام نجاحا معقولا لا هو في الحضيض ولا هو في القمة ، حتى إذا بلغا البكالوريوس ومر من العام ثلاثة أشهر قال لها :

— ١١٢ —

— الآن وجب الكلام .

— أفهمك .

— والدك موظف بوزارة المواصلات بدرجة مدير عام .

— أنت تعرف أسرتي كلها وزرتنا كثيرا .

— الذى أقوله مقدمة من المقدمات ، فى أغلب أمرها يكون فيها أشياء معروفة .

— إذن أكمل .

— إذا خطبتك منه سيقع فى حيرة ما بعدها حيرة . وأنا والحمد لله لست غنيا ولكننى مستور .

— وماذا تريد ؟

— أريد أن أكلم عمى سعدون بك دون أن أبث فى نفسى أى نوع من الحيرة .

— وكيف يكون ذلك ؟

قال باسما :

— هذا الأمر لا دخل لك أنت فيه .

— إنه أنا التى سأتزوج .

— إن دورك قاصر على أن عمى سعدون سيسألك رأيك وتقولين

موافقة .

وفى سخرية فرحانة قالت :

— يا سلام ! واثق من نفسك جدا حضرتك .

وفى نفس اللهجة الفرحة يقول لها :

— واثق من صلتنا الشريفة العفيفة على مدى أربع سنوات .

— وكيف لك أن تثق ؟

— إعجاب ومدارسة عرفتك فيها وعرفتني ، ورضيت أن أكون

زميل مذاكرتك وممشاك وصندوق أخبارك .

ما تضيقين به وما تسعدين ، وفرحت أنا أن أكون منك هذا

الإنسان . ومعنى فرحى أن إعجابى تحول إلى حب . حب جارف

عفيف ، حرصت كما حرصت أنت أن يظل عفيفا ، لأن كل منا كان

يدخر الآخر للحياة جميعها وليس لمعرفة عابرة بالإنسان ، ثم تمضى

كأنها لم تكن ولا تصبح إلا ذكرى هينة الشأن ضئيلة الأثر .

— والملخص ؟

— إن سعدون بك أو نجيبة هانم . والغالب أن نجيبة هانم هى التى

سئسالك : أتقبلين أكرم زميلك زوجا لك ؟

— هيه وماذا أقول أنا ؟

— والله أنت حرة . هناك ثلاث إجابات .

— لا رابع لها ؟

(خشوع)

— ١١٤ —

— لا رابع لها .

— ما هي الإجابات .

— نعم .

— يا سلام !

— وبهذه الإجابة تكونين صريحة واضحة منسجمة مع نفسك ،

لأنك أنت التي قدمت أكرم هذا إليهم ، فمن الطبيعي أن تقبله .

— معقول . والإجابة الثانية .

— التقليدية التي جرى عليها الغالبية العظمى من بنات حواء في

مثل هذه المواقف .

— ألا وهي ؟

— الرأي رأيكم يا ماما .

— معقول أيضا . والثالثة ؟

— ابتسامة مشرقة ، وهزة رأس خفيفة تفيد الموافقة . أيها

ستختارين ؟

وأغرقت نهى في الضحك وقالت : أليست هناك إجابة رابعة

محتملة ؟

— مطلقا .

— بل هناك .

— مثل ماذا ؟

قالت وهى تضحك ملء قلبها :

— مثل أبدا يا ماما ، كله إلا هذا .. أكرم زميل فقط . أما إذا أردت الزواج فإننى أريد شخصا غنيا واسع الثراء . أما هذا الشاب المغرور الذى يتصور أننى سأوافق على زواجه بمجرد أن يتفضل هو بطلب يدى .. أبدا يا ماما أبدا .

— إذا قلت هذا الكلام بهذا الوجه الصبيح المتطلق الفرح ، فإنه يعنى موافقة أقوى من الإجابات الثلاث التى تصورتها أنا .

— مغرور !

— محب .

وكسا وجهها الجذ وهى تقول :

— هل الحب فى داخلك صادق بقدر صدقه فى وجهك ؟

— أتشكين ؟

— أحب أن أسمع همسات نفسك بدلا من أن أحسها .

— إذن فحبى لك أكبر من حبك لى .

— ليس للحب موازين . هناك حب أو لا حب .

— لم أسألك إن كنت صادقة أم لا .

— اكتفيت أنت بالنظر والشعور ، وأردت أنا أن أشرك السمع

معهما .

— الكلام سهل ، ولكن الأيام فى الإثبات أقوى .

والتقت نظرتان يعرفهما الشباب الطاهر منذ بدء الخليقة .

وقالت نهى :

— هل أطلب لك موعدا من أبى ؟

— ولا هذا .

— لماذا ؟

— لأنك لو طلبت الموعد تكونين قد أعلنت الموافقة قبل

الطلب ، وهذا ما لا أرضاه لك .

— إذن ؟

— انتظرينى أنت اليوم فى الساعة السادسة ، دون أن يدري أحد

فى المنزل أنك تنتظرينى .

— وتأتى دون موعد .

— وكأنى سأذاكر معك .

— فإذا لم تجد أبى ؟

— فسأجده غدا .. أنا لا أريد أن يشعر بالحيرة مطلقا .

— فيم الحيرة ؟

— قد يجدى مقبولا وتقف موارد المالية فى الآونة الحاضرة دون

— ١١٧ —

الاستجابة لى . اتركى الأمر لى .

— ما ترى .

— إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

* * *

وجد سعدون بك ونجبية هانم .

— طبعاً أنا غير محتاج أن أقدم نفسى .

وقال سعدون :

— أنت أصبحت مثل ابننا .

— حالتى المالية حسنة ، فأنا أملك عشرة أفدنة وأملك بيتا فى

مركز المهدية . سأبيع البيت وأشترى شقة وأؤثثها فليس عليكم أى
أعباء .

— فيم تتكلم ؟

— أنا قدمت هذا الحديث لأننى أعرف العقبات التى تقف أمام

الأب حين تخطب ابنته .

وأغرق الأب والأم فى الضحك ، وتمت الخطبة .

* * *

كان أكرم يظن أن الأمور ميسرة وليس أمامه أية عوائق تحول دون

- بيع البيت . بل إنه حين ذهب إلى المركز وجد ما يشجعه على هذا
الظن ، فقد ذهب إلى قريبه الحاج شعبان تاجر الغلال .
- يا عم الحاج شعبان .
- ألف نعم يا أكرم ، وأنت فعلا أكرم .
- كان جرى بيننا حديث سريع عن بيتنا هنا .
- نعم ، أنا أرى أنك غير محتاج إليه .
- أنا كنت مبقيا عليه لأستعين بثمانه على زواجي وشراء شقة في
القاهرة ، وأقيم بها أنا وزوجتي .
- ونعم الرأى .
- وأنا فعلا خطبت .
- فعلا ؟ ألف مبروك دون أن تقول لى .
- إنها زميلتى فى الكلية ، والأمر لم يعد الاتفاق المبدئى أما فى
الخطوبة الرسمية فأنت الذى ستقوم بها إن شاء الله طبعاً .
- على بركة الله .
- الآن بيع البيت أصبح ضرورة .
- كن تاجرا ولا تقل هذا .
- أنا أقوله لك أنت فقط .
- اسمع يا بنى كأنك لم تكلمنى ، وأنا سأعرض البيع ، وإذا لم

— ١١٩ —

تعجبني الأسعار سيكون لي رأى آخر .
— أترك لك فرصة .
— أسبوع .

* * *

— خيرا يا عم الحاج شعبان ؟
— كل الخير .. أحسن سعر وصلت إليه خمسة وثلاثين ألف
جنيه ، وأنا أرى أنه سعر مناسب وإلا كنت اشتريته أنا .
— توكلنا على الله .

* * *

وفجأة بدأت الدوامة .

* * *

قال أكرم لمنصور وأمين :
— اتضح أن البيت ملاصق لعمارة يملكها رفعت ويأبى جشعة إلا
أن يشتري البيت أيضا .
سأل منصور :

— ما البأس ؟ إنه سيشتري بالشفعة فليدفع الثمن المعروض .
— هنا المصيبة ، يأبى أن يدفع أكثر من عشرة آلاف جنيه .
سأل أمين : والمشترون الآخرون ؟

— ١٢٠ —

— فروا جميعا . هددهم بالقتل إن رفع واحد منهم السعر عن عشرة آلاف جنيه ، والأرض هي الأخرى وسط أرضه وأوقف عنها الشراء تماما .

— لا إله إلا الله .

— ماذا أفعل ؟

قال أمين :

— لا تفعل شيئا ، توكل على الله .

والتفت إلى منصور وقال له :

— أيلزمك هذا البيت يا أستاذ منصور ؟

— أنا مستعد أن أشتريه ، ولن تكون على خسارة . بل أنا محتاج

إليه . وما ضاع مال أنفق في شراء بيت وفي موقع كهذا . ثم نادى :

— يا راضى .

— وحين جاء راضى قال أمين :

— اذهب مع الأستاذ أكرم واكتب عقد بيع البيت . سيعطيك هو

حدوده وأنا فى انتظاركم .

قال أكرم ودمعات فرح تسيل على خديه :

— ما هذا الذى تصنعه يا أستاذ أمين ؟

— ماذا ؟ مال مدفوع فى ثمن بيت .

— ١٢١ —

— وكيف صدقت ما أقول ؟

— أنا أعرف البيت وأعرف ثمنه . أنسيت أننا أسرة تجار ..

توكل على الله ولا تضع الوقت .

— ماذا أقول لك ؟

— أنت تعرف ما تقول .

— لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

١١

المحكمة منعقدة ومنصور وأمين جالسان في مقاعد المحامين ،
وقضايا تبلغ اثنتى عشرة قضية مرفوعة ضد رفعت الربيعى ومنه .
منصور وأمين يلقي كل منهما نظرة على القضايا التى سيتراجع
فيها .. ونودى على القضية الأولى ساميه نشأت الربيعى .
رفعت الربيعى .

وقال منصور :

— حاضر عن المدعية يا حضرة القاضى .
وارتفع صوت عميق الأغوار من آخر قاعة المحكمة .
— رفعت الربيعى حاضر عن نفسه يا حضرة القاضى .
وتقدم رفعت إلى المنصة فى خطوات ثابتة ، حتى إذا أصبح أمام
القاضى وقال :

— أتسمح لى يا حضرة القاضى ؟
— أنت مدعى عليك . لا بد أن يتكلم المدعى أولا .
— ربما أقول شيئا يغنيه عن الكلام .

— ١٢٣ —

— أسمح يا أستاذ منصور ؟

— لا مانع يا حضرة القاضي .

وتكلم رفعت الربيعي :

— كل القضايا المرفوعة ضدى من السيدة سامية نشأت أو من

غيرها ، أنا معترف بحق المدعين فيها بلا استثناء . وكل القضايا المرفوعة

ضدها أو ضد آخرين أنا متنازل عنها . هذا إجمال أرجو أن يثبت فى

محضر الجلسة ، ثم أفصل الإجمال مع الأساتذة المحامين بتوقيع منى على

ما يطلبون التوقيع عليه . ولا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا .

وعنت الوجوه للحى القيوم ، وكأنما أصبحت قلوب الجميع قلبا

واحدا يردد فى إيمان عميق ووجيب نورانى :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

تمت

الاستاذ نروت اباطة

- هارب من الايام
 - جذور في الهواء
 - امواج ولا شاطئ
 - القمران
- وستظهر رواياته تباعا

رقم الإيداع ١٩٨٩ / ٣١٧٥
الترقيم الدولي ٠ - ٤٩٥ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصير
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

736

أب
خ

الثلث ١٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه